دراسات قومية

العدد العاشر

جنوب السودان
بحر الغزال
بين العصابات والحكومات
من ١٨٥٠م إلى ١٩٢٠ م

للكاتب السوداني

التيجاني عامر

١٩٨٠

Dr. Binibrahim Archive

اعادة رفع وتحميل الكتاب

غرة رجب ١٤٤١هـ

جدة - المملكة العربية السعودية

رقم الايداع ٢١١٩ / ١٩٨٠
الترقيم الدولى ٨ـ٩٠ـ٧٢٩٦ـ٩٧٧ ISBN

AL-AHRAM PRESS

ابراهيم بن حسن بن ابراهيم آل ابراهيم العباسي

دراسات قومية

العدد العاشر

جنوب السودان

بحر الغزال

بين العصابات والحكومات

من ١٨٥٠م إلى ١٩٢٠ م

للكاتب السوداني

التيجاني عامر

Dr. Binibrahim Archive

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الكتاب الذى اقدمه بهذه السطور للقراء الكرام من المهتمين بتاريخ السودان يعالج جانبا كبيرا وهاما من تاريخ مديرية بحر الغزال بحدودها الجغرافية الأولى قبل ان تقتطع منها منطقة الزاندى فى عام ١٩٣٥ وقبل ان تقسم كما هى الآن الى مديريتين هما بحر الغزال والبحيرات .

ونستطيع ان نحدد المرحلة الزمنية التى تدور فيها موضوعات الكتاب بالفترة من تاريخ الحكم التركى المصرى الى نهاية الحرب العظمى العالمية الأولى « ١٩١٤ / ١٩١٨ م » وهى مرحلة الحكم الثنائى « الانجليزى المصرى » .

ومع هذا التحديد الزمنى فان القارىء لن يخطىء ملاحظة ان منطقة بحر الغزال لم تدخل فى اطار خريطة السودان بطريقة عملية تحت الحكم التركى المصرى إلا فى عهد الخديوى اسماعيل « ١٨٦٣ / ١٨٧٩ م » وعندما فرض الزبير باشا رحمة منصور نفسه مديرا عليها باسم الخديوى ووضع الحكومة تحت امر واقع اقرته به على ادارة بحر الغزال ومنحه الخديوى لقب « بك » .

ومديرية بحر الغزال القديمة تعتبر بالنسبة لجنوب السودان منطقة غنية بالأحداث التاريخية المثيرة لأن موقعها الجغرافى على حدود مع مستعمرات فرنسا والكونغو البلجيكى من الغرب والجنوب الغربى والمناطق العربية من الشمال والشمال الغربى يجعلها مستهدفة للهجوم والغزو الأجنبى حسب الظروف السياسية والعسكرية .

وقد بلغ من أهمية بحر الغزال فى التاريخ انها فى مرحلة احتلال الفرنسيين إبان المهدية فى السودان قد كادت ان تكون سببا فى اشعال الحرب فى اوربا

بين الانجليز والفرنسيين على اثر نزاع بلغ حد التوتر بشأن « حادث فاشودة » والمواجهة العسكرية التى حدثت بين « اللورد كتشنر والكولونيل مارشاند » فى فاشودة « عاصمة اعالى النيل قبل أن تسمى كدوك » .

ووجود فاشودة فى اعالى النيل لا يعنى ان النزاع كان بشأنها هى كمنطقة شلك على ضفة النيل الغربية ولكن حقيقة النزاع كان عن احتلال بحر الغزال فى الداخل وقد اراد الفرنسيون ان تكون لهم واجهة على النيل الابيض فكان احتلال مارشان المؤقت لفاشودة وصارت تحمل اسم الحدث التاريخى الذى ستجدون تفاصيله الدقيقة فى فصل كبير من هذا الكتاب مدعم بالوثائق والاتفاقيات وتوقيتها سواء حدثت فى لندن او باريس او القاهرة أو الخرطوم .

ولان منطقة بحر الغزال الواسعة بما فيها اقليم الزاندى الذى الحق بالمديرية الاستوائية فى عام ١٩٣٥ على يد الادارة البريطانية تعتبر منطقة خيرات عظيمة ووفيرة بما حبتها به الطبيعة من كل نوع مثل سن الفيل وريش النعام والصيد والجلود والمحاصيل والاخشاب الجيدة النادرة وعسل النحل والطيور الفريدة ، فان انظار التجار المغامرين من العالم الخارجى قد تركزت عليها فى نوع التجارة المسلحة بعصابات مختلفة تمارس الحرب على السلب والنهب ضد بعضها البعض او ضد القبائل التى تقاوم لتحمى ثمارها .

ولقد كان هذا الثراء الطبيعى يضاف اليه ثروات باطن الارض من الحديد والنحاس والذهب مغريا لمستعمرى دول غرب اوربا الذين جابوا اعماق افريقيا وتسابقوا على استعمار اهلها وارضها . كان وضعها هذا مع تنافس كل من فرنسا وبلجيكا وبريطانيا على وضع ايديهم عليها الدافع القوى الذى حفزنى لمحاولة تسجيل تاريخها فى هذا الكتاب بعد معاناة مضنية وراء المراجع وجهود مكثفة فى تحقيق الاحداث صغيرها وكبيرها هادفا بذلك الى اخراج كتاب محقق لبنى وطنى باللغة العربية لانى اكتشفت ان كل ما كتب بتفصيل عن بحر الغزال كان باللغة الانجليزية وان كل ما جاء بالعربية فى بعض كتب التاريخ انما كان فصولا قصيرة متصلة بحادث معين أو آخر . وسيكون من النفع العام لابناء الاقليم الجنوبى ان يترجم هذا الكتاب للانجليزية لتنتشر معلوماته .

ومع انى قد عشت فى بحر الغزال « واو » كموظف حكومة فى فترة مبكرة تمكنت خلالها من زيارة كل أنحاء بحر الغزال وجمع المعلومات منها والتعرف على كل قبائلها ثم زرتها مرارا بعد ذلك فى مهمات رسمية كانت طبيعتها الطواف بالمراكز ، مع تلك الصلة الوثيقة فاننى قد بذلت جهدا كبيرا للحصول على وثائق ومعلومات رسمية وجدت بعضها فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ودار الكتب التركية باسطنبول وجامعة درهام ببريطانيا ومكتبة جامعة اكسفورد ودار الوثائق البريطانية بلندن ومكتبة المجلس البريطانى بلندن وغيرها .

ومع كل هذا الجهد والعناء فانى لا ادعى الاحاطة الكاملة بتاريخ تلك المنطقة خاليا من نقص هنا وهناك والكمال لله وحده . ولكن الذى يمكن ان ادعيه بثقة وتاكيد هو ان ما طرحته هنا منسوبا لمصادره التى استعنت بها صحيح وموثوق به .

ولان قبائل بحر الغزال بطبيعة اهلها الاجتماعية تنبثق منها قبائل فرعية كثيرة جدا ولها تسميات مختلفة لفروع صغيرة جدا تتكون من بضع اسر ، فان احصامنا للقبائل باسمائها خصوصا فى غرب بحر الغزال لابد ان يكون ناقصا بعدد ضئيل من فروع القبائل التى لا وزن لها ولا يضير قراء هذا الكتاب الجهل ببعضها لعدم اهميتها .

عنوان الكتاب :

لابد لى هنا من تفسير بسيط لما يشير اليه عنوان الكتاب « بحر الغزال بين العصابات والحكومات » لان هذا الاقليم هو الوحيد الذى تعرض بحكم وضعه الجغرافى فى القرن الماضى للرزوح تحت سيطرة عدة انماط من الحكم بدأت بسيطرة الاقوى من القبائل على الاضعف ثم سيطرة عصابات تجار الرقيق ثم سيطرة الحكم المصرى التركى ثم غزو المهدية وسيطرتها ثم عودة نفوذ العصابات والقبائل ثم اقتحام بلجيكا للاقليم من اقصى جنوبه الغربى الى اقصى شماله الغربى ثم زحف القوات الفرنسية من افريقيا الوسطى عن طريق دار الزاندى واستعمار بحر الغزال بسيطرة امتدت الى حوض النيل الابيض عند ملتقى نهر سوباط به وهناك حدثت قصة فاشودة التى كادت ان

تشعل حربا بين بريطانيا وفرنسا فى اوربا وانتصرت بريطانيا دبلوماسيا بدعوى وكالتها عن حقوق مصر فى ارض السودان مما سيجده القارىء بتفصيل فى باب مستقل من الكتاب .

وانتهت تقلبات السلطة على بحر الغزال بالفتح المصرى الانجليزى عام ١٨٩٨ ولكن السيطرة عليه لم تتم بوضع السلاح إلا فى ١٩٠٥ فصارت « واو » عاصمة للمديرية .

شكر وامتنان :

وفى ختام هذه المقدمة أرجو مخلصا ان اقدم اوفر الشكر واجزله للاخ الرئيس جعفر محمد نميرى لاهتمامه الشخصى بتسجيل تاريخ السودان ولتشجيعه المقدر لشخصى حين منحنى وسام الدولة الذهبى للآداب والعلوم والفنون فى المهرجان الثقافى لعام ١٩٧٧ تقديرا لما سبق ان اخرجت من كتب عن تاريخ السودان .

كما ارجو ان اتقدم بالشكر ايضا « للمجلس البريطانى » على منحته المقدرة ببعثة الى لندن حيث استطعت ان اجمع كثيرا من شتات المعلومات التى حواها الكتاب من مصادرها المحفوظة بدار الوثائق البريطانية وجامعات درهام واكسفورد وغيرها . كما اخص بالشكر الجنرال السير رونالد ونجت الذى استضافنى بمنزله الريفى فى « سلسبرى » واطلعنى على كثير من مخلفات والده الذى حكم السودان من عام ١٨٩٩ الى ١٩١٦ وهى مرحلة بناء السودان الحديث .

والشكر ايضا للصديق الفيلسوف البروفسور ريتشارد هل الذى اصدر عدة كتب لعونه لى فى اكسفورد بما لم يستطع ان يعيننى به غيره .

واخيرا الشكر لدار الوثائق المركزية بالسودان ودار الوثائق المركزية ومكتبتها بالقاهرة على ما ظفرت به منهما من معلومات ذات قيمة .

غرة رمضان عام ١٣٩٩
٢٦ يوليو عام ١٩٧٩

المؤلف

الفصل الأول

جغرافية وطبيعة بحر الغزال

جغرافية وطبيعة بحر الغزال

الاقليم الذى نؤرخ له هنا نحدده بالحدود الرسمية لمديرية بحر الغـزال على الوضع الذى ظهر فى الخرائط فى بداية الحكم الثنائى بعد عام ١٨٩٨ م وقـد كانت كل منطقة الزاندى فى جنوب الاقليم من بين اعمال بحـر الغـزال وليس المديرية الاستوائية كما هو الحال الآن ولذلك فان تسجيلنا لتاريخ بحر الغزال يشتمل على كل المشاكل والنزاعات التى حـدثت فى دار الزاندى وهـى كمـا سيرى القراء أحداث كبيرة وهامة .

والواقع ان وضع دار الزاندى من ضمن اقاليم بحر الغزال لم يكن قد حدث مع سلطة الحكم الثنائى ولكنه كان كذلك منذ ايام الحـكم التركى المصرى ثم المهدية ثم الى مدى طويل ابان الحكم الثنائى قبل ان تنسلخ من بحر الغـزال وتضم الى المديرية الاستوائية بعد جلاء الاسـتعمار البلجيكى فى عام ١٩١٠ والذى كان يستولى على قطاع كبير من المديريتين الاستوائية وبحر الغـزال بما كان يسمى « اقليم اللادو » .

ومديرية بحر الغزال تقع فى اقصى الجنوب الغربى للسودان ومساحتها تبلغ نحو ١٢٦٢٩٠ ميل مربع وهى مـا يسـاوى مسـاحة ايطـاليا وبلجيكا مندمجتين .

وحدود المديرية من الناحية الشمالية تتاخم دارفور وكردفان كما تتاخم من الشرق مديريتى الاستوائية واعالى النيل . ومن الجنوب تلتقى مع زائير كمـا تلتقى مع افريقيا الوسطى .

طبيعة الأرض :

ترتفع ارض بحر الغزال تدريجيا تجاه الجنوب والغـرب وتتضـح معـالم الأودية والنهيرات بعد تجاوز منطقـة المسـتنقعات وتتعـالى الحجـارة (القرانيت) احيانا الى ارتفـاع ٤٠٠ قـدم وتتعـدد احيانا عند المنحـدرات العالية . وفى كثير من الأحيان تجد الحجارة الحديدية والكرستلين تحت طبقة خفيفة من التراب السطحى . ومع ذلك فـان منخفض الانحـدارات وقـواعد الاودية والخيران يشكل ارضا بالغة الخصـوبة والقـابلية للانتاج الزراعى .

وهى ـ اى التربة ـ من نوع نحـاسى اللون مخلوط بجـانب مـن الرمـال الخليفة .

وتتميز مديرية بحر الغزال بالغابات الكثيفة ذات الاشـجار الضـخمة التى تملأ كل جنبات المديرية ما عدا منخفضات الاحراش والمستنقعات . وطبيعة ارض بحر الغزال من النوع الذى حوى كل مظاهر الطبيعـة الجيدة إذ تتعدد بها البحيرات والمياه المتجمعة وتكثر بها النهيرات التى تكون شبكات مائية عديدة بعضها دائم وبعضها موسمى مؤقت .

وفوق هذا وذاك نجد فى بحر الغزال الجبال والهضبات الصخرية فى أمـاكن متعددة تحفها الغابات الكثيفة .

الطقس :

فى الجزء الشمالى من بحر الغزال تهطل الامطار فى نهـاية مـايو وتنتهى بنهاية اكتوبر أو منتصف نوفمبر من كل عام . اما الجزء الجنوبى من المديرية فان امطاره تهطل يوميا تقريبا من مارس الى نهاية نوفمبر .

وقد اشتهرت بحر الغزال بقوة الصواعق الرعدية التى كثيرا ما يكون لهـا ضحايا من الناس والحيوان والمتاع وتعزى قـوة الصـواعق الى كثرة المواد الحديدية فى ارضها .

وطقس المديرية بوجه عام يعتبر مناسـبا وصـحيا فى مـواسم الجفـاف « الصيف » بين نوفمبر ومارس ولكنه شديد الرطوبة عند نزول الأمطار وتصل درجة الحرارة فى الظل ٩٨ بحـد أدنى يصـل الى ٥٩ درجـة فهـرنهايت وفى الخريف بين ابريل ويونيو يكون المتوسط ٨٩ درجة ومن يولية الى ديسـمبر ٨٥ درجة ويصل الحد الأدنى الى ٧٠ درجة .

الثروة الحيوانية :

الاغلبية العظمى لسكان بحر الغزال هم قبيلة الدينكا فى كل مـراكز رمبيك ويرول والتونج والمشرع وقوقريال واويل ومركز واو . وهم جميعـا يعملون فى تربية الماشية من ابقار واغنام بالأسلوب التقليدى الموروث ولكن الابقار هـى الاكثر عددا واهم قيمة .

وبالاضافة للدينكا فـان بعض صـغرى القبائل ترعى الابقـار والاغنام ف حدود اقل بالنسبة للدينكا . والابقار لا تمثل عند الدينكا مجـرد ثروة حيوانية متداولة بطريقة فردية او قومية ولكنها ايضـا ذات اهمية روحية واجتمـاعية كبرى إذ يتعاملون بها ويتقاضون ويدفعون بها الغـرامات والضرائب والدية والفدية والزواج والطلاق وكل ما الى ذلك من مطالب مجتمع الدينكا .

وحتى الاهمية الاجتماعية بالنسبة للفرد او الاسرة تقـدر بحسـاب البقـر وحده إذ ليس هنالك منافسات ثقافية او زراعية او صناعية .

ولان معظم الدينكا لا يبيعون ابقـارهم لقضـاء اوطـارهم وحـاجياتهم الضرورية من الاسواق ، فـانهم يعتمـدون ف ذلك على بيع الاغنام والدجـاج لشراء لوازمهم ولهذا فان اعداد الابقار تتضاعف بكثرة ولكنها من آن لآخـر تصيبها الامراض الوافدة ويتقلص عددها وهكذا .

الصيد والحيوانات البرية والمائية :

وتعتبر بحر الغزال من أغنى مديريات السـودان بالحيوانات البرية والمائية وانواع الصيد والطيور والزواحف ولنذكر بعضها فيما ياتى :

الحيوان	اماكن وجوده
الافيال	توجد ف معظم مناطق المديرية
الخرتيت الاسود	يكثر وجوده بجنوب بحر الغزال
الزراف	يوجد بكثرة ف كل الجهات
الجاموس	يوجد بكثرة ف كل الجهات
تبانج	يوجد ف كل المناطق المكشوفة من الغابات
تيتل اصفر	يوجد بكثرة عامة
كتمبور	يوجد بكثرة حول موارد المياه
حمراية يوغندا	يوجد بكثرة حول موارد المياه
الغزال الغطاس	يوجد بندرة حول موارد المياه
باشمات	نادر الوجود
ابو عرف	موجود بكثرة عامة
ستتونجه	ف مستنقعات نهر الجور

ابو نباح	كثيرة حول الأنهار والبحيرات
غزال مود	موجود بكثرة
بقدق	ليست كثيرة الانتشار
بقدق اخضر	فى جنوب المديرية
فرس البحر	فى كل الانهار الكبيرة
الحلوف البرى	موزع الوجود
الخنزير المتوحش	لا يوجد بكثرة
الأسد	موجود فى كل الانحاء
الفهد	موجود بكثرة فى كل مكان
شيتا	فى جنوب المديرية
الشمبانزى	فى غابات النيام نيام وحدود الكنغو
ابن اوى (الثعلب)	فى كل مكان
القط الزبادى	فى كل مكان
ابو ريشات (قط متوحش)	فى كل مكان
النمس (قط برى)	فى كل مكان
فار اليوص (فار ضخم)	فى كل مكان

ومن الطيور المنتشرة :

النعام ـ الحبارة بانواعها ـ دجاج الوادى ـ الوز والبط بانواعها ـ والطير النادر (ابو مركوب) وكذلك توجد جميع انواع الصقور الضخمة المفترسة وطيور أخرى عادية كثيرة .

الزواحف :

كما ان بحر الغزال مليئة بالتماسيح ـ ويوجد الورل البرى والبرمائى . ومن الافاعى توجد الأصلة ذات الحجم المتضخم وابو درق (الكبرة) النهاقة الخطيرة وكذلك توجد عشرات من انواع الافاعى واكثرها غير سام .

ومما يدعو لكثرة توالد الافاعى ان خرافة الدينكا بقرابتهم معها لا تسمح لهم بقتلها فتكثر ولكن هذا (السير) او العقيدة فى طريقها للاختفاء من عقول الجيل الجديد .

الفصل الثانى

بحر الغزال قبل الحكومات

بحر الغزال قبل الحكومات

لم يعرف عن إقليم بحر الغزال الواسع قبل النصف الأول من القرن التاسع عشر اى شيء يستحق الذكر سوى انه كان وطنا لأهله وحدهم شانه شأن كل مكان لم يخضع لغزو أجنبي . ولكنه تعرض بعد منتصف القرن التاسع عشر لاستكشافات عديدة من عناصر اجنبية عن نوعية اهله وهى عبارة عن مجموعات مختلفة ومتعددة من المغامرين الذين دفع بهم طموحهم للثروة والسلطة والتسلط فوجدوا من بدائية الاقليم وبساطة أهله مسرحا واسعا لممارسة طموحهم وتحقيق اغراضهم بالطرق المشروعة وغير المشروعة والوسائل الانسانية واللاإنسانية .

وكانت أهداف المجموعات المغامرة آنذاك تتمركز فى التجارة بوجه عام وتجارة الرقيق بوجه خاص لان نشاطها ورواجها قد بلغ اثره فى القرن التاسع عشر وفى افريقيا كلها بغير استثناء لأى جزء منها . وكان لمناطق بحر الغزال بالنسبة للسودان النصيب الاكبر من امثال ذلك الغزو التجارى لأسباب واضحة منها :

اولا : وفرة الخيرات من الانتاج الطبيعى الذى يجد فى خارج السودان رواجا واقبالا باسعار عالية مثل ريش النعام وسن الفيل وجلود النمر والصيد النادر والتماسيح وعسل النحل الجيد والشمع المستخرج منه وغير ذلك .

ثانيا : امكانية الدخول لبحر الغزال من ثلاثة مداخل اولها من النيل الابيض الرئيسى بمرفأ (شامبى) وثانيها عن طريق بحر الغزال بمرفأ (مشرع الرك) وثالثها عن طريق شمال دارفور بمنطقة راجا .

وبالاضافة لتلك المداخل فان هناك عدة مداخل فى الشمال الغربى باجتياز بحر العرب الى مناطق الدنكا سواء من أقصى جنوب جبال النوبة أو من دار المسيرية عن طريق (ابيى) او من دار الرزيقات عن طريق (سفاهة) وغيرها .

ومع ذلك فان الغزو التجارى الاول قد بدأ من شرق بحر الغزال وكان الغزاة من التجار المسلحين اجانب وليسوا بسودانيين بل ان بعضهم كانوا اوربيين . وقد جاء فى كتاب « التاريخ القبلى لغرب بحر الغزال » الذى وضعه (الاب سانت اندريا) بالانجليزية ان الفضل فى معرفة بحر الغزال وثروتها التجارية الضخمة بدراسة علمية مفصلة يعود الى المستر « برون روليت » الذى صار بعد ذلك قنصلا فى الخرطوم (لساردنيا) . ومما كتبه ذلك المغامر الاجنبى بعد سياحة دراسية اتسعت جوانب الاغراء والتشجيع للمغامرين من طلاب الثروة والسلطة وكان للأجانب بوجه عام نصيب السبق فى ذلك كما سيرد هنا .

نشاة الزرايب الكبرى واصحابها :

كان مركز تجارة المغامرين الغزاة او رئاسة عملهم يسمى (زريبة) ذلك لان منطقة كبيرة مناسبة تهيا بالاخشاب الضخمة والشوك فى شكل (زريبة) كاستحكامات وقائية ضد الهجوم البشرى والحيوانى فى مكان مناسب من حيث وفرة الماء وغير ذلك . ومع ان تلك الزرائب كانت فى الواقع عبارة عن طوابى عسكرية وحصون قتالية متينة وضخمة إلا أن اسم « زريبة » هو التعريف الذى درج عليه الناس آنذاك ورصد فى كل التقارير والمؤلفات التى وضعت لذلك الاقليم فى تلك المرحلة .

وقد رايت أن أسجل الغزاة المغامرين فى بحر الغزال بحسب أسبقية توقيت دخولهم للمنطقة على النحو التالى :

جون باتريك JOHN PATHERIC :

ويعتبر هذا المغامر أول من نفذ الى بحر الغزال عن طريق المشرع وراد منطقة البينكا فى عام ١٨٥٣ ثم استقر بزريبة لرئاسة مغامراته التجارية فى منطقة الجور الى عام ١٨٦٣ حيث توسعت أساليب عمله التجارى مع قبيلتى « الجور والبونقو » ثم امتد حتى منطقة قبيلة « بلاندا » ثم اطراف منطقة « الزاندى » .

وقد عرف عن ذلك المغامر بأنه ترك عندما غادر البلاد معلومات كثيرة وخرائط تبين رحلات عمله ونتائجها .

ابو قرون :

كان من عملاء جون باتريك ولكنه استقل وكون جيشا كبيرا واسس زرائب في دار الزاندى ولكن السلطان اندروما عمل له كمينا فقتله هو وكثير من رجاله في اكتوبر ١٨٧٠ م في دار الزاندى .

الفونسو دى مالزاك MALZAC :

يعتبر هذا المغامر الفرنسي الجنسية الذى هبط بحر الغزال عام ١٨٥٦ م - يعتبر مؤسسا لبلدة (رمبيك) بعد ان دخلها عن طريق شامبى واسس تجارة في كليهما وقد اتسعت تجارته مع « الدينكا اقار » ولكنه مات في عام ١٨٦٠ م واشترى كل ممتلكاته مغامر آخر نمساوى الجنسية يسمى (فرانز بندر) الذى كان شريكا له في تجارة شامبى على شواطىء غرب النيل .

الاخوان امبروز وجوليز بونسيت PONCET :

وهذه ايضا شركة فرنسية من المغامرين دخلوا عن طريق شامبى بالنيل وتوسعوا في تلك المنطقة ومنطقة (الاقار) حيث كانت رئاستهم في (اياك) . ثم هجروا تلك المناطق الى نواحى التونج مع غطاس وفتحوا زرائب رئاسة في امقولو وهو مكان مشهور معروف حتى الآن . غير ان هذه الشركة صفت اعمالها وغادرت بحر الغزال في عام ١٨٧٢ م .

غطاس :

وهذا مغامر مصرى مسيحى اسمه عبد المسيح غطاس جاء بعد الأوربيين الذين اوردنا اسماءهم ولكنه كان مغامرا من نوع مقاتل ومثابر استطاع أن ينافس الأوربيين بشراسة ثم ينتصر عليهم ويصفى اعمالهم الواحد تلو الآخر في شرق ووسط بحر الغزال .

واشتهر غطاس في مناطق الدينكا والاقار والريك وقبائل الجور والبنقو حتى ان نهر الجور نفسه كان يسمى - ولا يزال عند بعض الناس بجور غطاس .

ليس ذلك فقط بل ان رئاسة الاقليم الرسمية فى مدينة التونج كانت تسمى جور غطاس أيضا نسبة لاسم ذلك المغامر المصرى القبطى .

ويقول تقرير من أوراق الجنرال جيسى باشا الذى فتح بحر الغزال باسم الحكومة المصرية فى ۱۸۷۸ / ۱۸۸۰ انه وجد عونا من تاجر مغامر بسلاحه وعصاباته اسمه (منقريوس) هو ابن اخ لغطاس ورث زرائبه وسلاحه ورجاله وتجارته ورافق جيسى باشا فى رحلته لحرب سليمان الزبير فى غرب بحر الغزال .

محمد عبد الصمد :

وهناك فى الجنوب الشرقى من بحر الغزال ظهر مغامر فى نفس الفترة اسمه محمد عبد الصمد يقول بعض الرواة انه من دناقلة شمال السودان ويقول (سانتنداريا) انه جاء من (كانو) فى نيجيريا وهذا غير صحيح .

اقتحم عبد الصمد مناطق للبلاندا وشمال الزاندى وكون منهم فريقا من الأعوان والأصدقاء ودربهم على الرماية والغارات واستطاع ان ينشىء زرائب متعددة وان يستولى على كثير من حصاد الاهالى من الريش والسن وان يستغلهم ويستخدمهم ويكون بذلك ثروة ذات شأن .

وقيل انه قد دخل بحر الغزال وبصحبته نحو من خمسين جنديا من الدناقلة مسلحين وان واحدا منهم اسمه (سرور) كان وكيل عبد الصمد ونائبه فى اعماله وقد اشتهر اسمه هناك .

ولم نجد من المعلومات ما يفيد بمدى الزمن الذى اقامه عبد الصمد فى دويلته تلك بين ۱۸۷۰ و ۱۸۸۰ م .

منطقة وسط وغرب بحر الغزال :

نرى مما سبق ذكره من سيرة المغامرين الغزاة من الأجانب ومعهم واحد مصرى قبطى وواحد سودانى أو نيجيرى ــ نرى من ذلك انهم جميعا عملوا فى الجانب الشرقى من بحر الغزال الى حدود المنطقة الوسطى عن طريق النيل الابيض وميناء (شامبى) أو عن طريق بحر الغزال وميناء (مشرع الرك) ولم يحدث ان غامر اوربى بالعمل فى وسط او غربى بحر الغزال .

اما الذين غزوا وسط وغرب بحر الغزال من تجـار العصـابات المحـاربة منهم)[1] :

على ابو عمورى:

المغامر على ابو عمورى من مواطنى صعيد مصر وقد وفد الى بحر الغـزال بقوة مسلحة وقيل انه قد سـبق (بثريك) الاوربى على الوصـول الى المشرع بايام قليلة فى عام ١٨٥٣ كما يقال ان (ابو عمورى) قد وفق فى اختيار مراكز مثمرة للعمال فى وسط بحر الغزال فى دار البنقو الغربية مـع مـركز رئيسى فى (لونقو) عند نهر البونقو ويقع قريبا من كنيسة (كايانجو) بدار القولو .

كما انه شيد مراكز اخرى متعددة تقع شمالا فى ديمبولاند .

وتقول بعض الوثائق ان اعمال على ابو عمورى الواسعة فى بحر الغزال قد ورثها ونماها قريبه والوريث الشرعى قناوى ابو عمـورى وقـد امتاز هـذا بنشاط كبير وتحرك واسع مع تفكير سـليم فى كل مـا كان يصـدر منه حتى طبقت شهرته الآفاق كما ان اعمـاله امتدت حتى وصـل الى نهـر الكنغـو البلجيكى ويقال ان المغامر (على كوبو) كان احد وكلائه فى بحر الغزال وهو من الذين اشتهروا بالبطش والقوة كرئيس عصابة مسلحة . ومن المعالم التى بقيت آثارها لزمـن طـويل زرائب قناوى أبو عمـورى فى المكان الذى لا يزال يسمى (ديم قناوى) وزرائبه على بعد نحو ميل شمال مدينة واو على طـريق اويل ثم على بعد عشرة أميال أخرى فى الشمال الغربى من الغابة .

وقناوى ابو عمورى من المصريين الانكياء إذ استطاع ان يسترضى الحـكام الاتراك فى الخرطوم عن أعماله وان يقيم مـن نفسـه سـفيرا غير رسـمى للحكومة التى منحته لقب (قناوى بك) ولقد كانت وسائله لذلك التقدير وبغض النظر عن اعماله الرديئة ضد المواطنين هى الرشوة للحكام .

الزبير باشا :

ومن المعروف ان اكثر المغامرين الذين اشتهروا فى بحر الغزال هـو الزبير باشا رحمة منصور وهو من قبيلة الجميعاب بريفى شمال الخرطوم . وقد ولد الزبير باشا فى عام ١٨٣٠ وتوفى فى عام ١٩١٢ عن ثلاثة وثمانين عاما .

---

(١) سانت اندريا

وقد التحق الزبير فى بداية عمله بعصــابات على ابو عمــورى كا
ولكنه كان متلفتع الذهن مــع شــجاعة مفـــرطة دفعته الى الانفصــ
« ابو عمورى » وتكوين زريبة وجماعة منفصلة تعمل مســتقلة تحـ
ورئاسته واستدعى من رجال الجميعاب والجموعية بالشمال أعوانا
بهم على المغامرات الواسعة فى بحر الغزال وكان ذلك فى عام ١٨٥٨ م
استقر فى منطقة (القولو) غرب واو بطريق راجا .

ثم نزح فى عام ١٨٦٥ الى الغرب فاسس (ديم زبير) ولكنه لم يلبث ان
فى مملكة واسعة فنزح بجنده الى دار الزاندى فى جنوب بحر الغــزال و
السلطان (تكما) فى مواقع حربية واستولى على المنطقة وتزوج بنت السلطا
(تكما) ليصطلح مع الزاندى فى عام ١٨٧١ .[1]

وكان الزبير يرسل قوافل بضاعته عن طريق دار الرزيقات (شكا) بشمال
دارفور ومنها الى كردفان فالخرطوم فمصر ولكن عرب الرزيقات اعترضـوا
قوافله عدة مرات وصادروا بضائعه فزحف إليهــم فى جيش مســلح وخـاض
معهم معارك وانتصر عليهم .

ثم طمع فى فتح دارفور ذات السلطنة المستقرة فعرض على الرزيقات صلحا
واتفاقية يساعدونه بموجبها على فتح دارفــور والاســتيلاء عليهــا[2] وكان
الرزيقات يعانون كثيرا من الغبن والعذاب من سلاطين الفــور فــاتفقوا مـع
الزبير باشا فزحف الى دارفور مسلحا بخبرة بحر الغزال الواســعة فى فنون
الحرب وحدثت فى عام ١٨٧٤ م مــوقعة (منواشى) التى انتصر فيهــا الزبير
واعوانه على السلطان ابراهيم قرض الذى قتل فى صدر المعــركة . ثم زحـف
الزبير باشا الى الفاشر واستولى على دارفور فى ٣ نوفمبر ١٨٧٤ م .

ولان الزبير باشا كان قد اقنع حكومة الخرطوم وهو يعمل مديرا لهــا هناك
بان الخديوى اسماعيل فى مصر قد وافق مضطرا على ذلك ومنحه لقب (بك) .
ولذا فانه عندما دخل الفاشر فاتحا رفع العلم المصرى واعلن ضم دارفور الى
بقية مديريات السودان تحت الحكم الخديوى المصرى .

---

(١) نعوم شقير

(٢) مصر فى السودان ـ ريتشارد هل

ولكن ايوب باشا حاكم الخرطوم كتب للخديوى مشككا فى ولائه ومحذرا بان الزبير الذى منح لقب (باشا) رجل طموح وقـد يكون مخـططا للزحـف على الخرطوم لطرد الحكم المصرى من السودان . ولهذا فـان الخـديوى قـد طلب الزبير للقاهرة ليحضر التكريم الذى سيقام له ويتقلد الالقاب والنياشين التى ستمنح له . وصدق الزبير باشا كل ذلك وما ان وصـل القـاهرة حتى اعتقـل هناك ثم حددت اقامته فى مدينة حلوان ومنع من العودة للسودان .

وكان ابنه سليمان الزبير لا يزال يشرف على اعمالهم ببحر الغزال وعندما عرف بان والده قد منع من العودة للسودان رفع راية العصـيان على الحـكم المصرى فى السودان فجرد عليه غردون باشا حملة بقيادة روموليو جيسى باشا فقتله وشرد جماعاته كما سيرد فى مكان آخر من هذا الكتاب .[1]

والزبير باشا بالمقارنة مع كل رفاقه الذين غامروا واستثمروا بحر الغـزال باهلها وخيراتها يعتبر ابعدهم صيتا واكبرهم شانا وسمعة ومع انه على قمة المسئولين عن انتشار تجارة الرقيق بكل سيئاتها وفقـدان انسـانيتها إلا انه كان يختلف عنهم بما قام به من تنمية علاقـات شـخصية ومصـاهرات مـع السلاطين ومواطنى المناطق ومن هنا جاء انتشار اسمه على نطاق واسع .

البصيلى :

والبصيلى مغامر مصرى من الصعيد انشا زرائبه عند ملتقى (خور انقـوا مع القيت) . وقد جاء البصيلى بعد ابن عمورى واشتهر بين الناس وبخاصة اسم رئاسة اعماله فى بلدة (بصيلية) وهى مركز وسط قبيلة اندقو على بعـد نحو عشرة اميال للجنوب الغربى من مدينة واو .

وقد عرف عن البصيلى ان اعماله قد امتدت الى منطقـة الزاندى فى الجنوب ثم ركز اعماله على مناطق قبائل القولو والكريش .

العقاد :

وهذا ايضا مغامر مصرى صعيدى وفد الى بحـر الغـزال قبل عام ١٨٧٠ وعمل فى مناطق متعددة وعين وكلاء عنه فى كل مكان اسس فيه عملا .

---

(١) نعوم شقير

كوشوك على :

تقول بعض الوثائق انه من مواليد الاتراك وقد أسس زرائب فى منطقة غرب نهر الجور ولكنه خاض معركة ضد (الهلالى) فمات مقتولا فى المعركة لمأثر اعماله .

ويقال ان زريبته المسماة (واو) هـى التى سـميت بهـا عاصـمة المديرية (واو) كما يقال ان « الهلالى » وهو مغامر مغربى قد احتل زرائب كوشوك باعتبار انه موفد من حاكم الخرطوم لاحتلال بحر الغـزال ولكن نشبت بينه وبين الزبير رحمة معارك انتحر فيها وقتل على يد الزبير نفسه كما سيأتى .

ادريس ابتر :

لقد عرف ادريس ابتر كتاجر مغامر فى بحر الغزال من فترة مبكرة حـوالى ١٨٦١ م ولكنه كان قبل ذلك فى خدمة الكنيسة الكاثوليكية كقبطـان لسفينة وهو العمل الذى كان يفضله كل ابناء الدناقلة فى القـرن التاسـع عشر وحتى هذا القرن .[1]

ولان إدريس من ابناء منطقة الحفير فى دنقلا فانه قد عمل فى بادىء الامـر بحارا فى السفن الشراعية ولكن فكره الثاقـب وذكاءه الطبيعـى فتح أمامه الآفاق للعمل التجارى والمغامرات .

وبدأ إدريس مغامراته بغارة مسلحة على زرائب الخواجه « جون كلينزنك » ونهب منها كل سن الفيل وريش النعام والجلود المختلفـة التى كان يجمعهـا ريثما يصدرها .

اما زرائب رئاسة عمله فقد اقامها على بعد مائة وخمسين ميلا للغرب مـن مدينة واو ويقول (سانت اندريا) فى كتابه ان اثار وبقايا تلك الزرائب لا زالت باقية حتى الآن وانه شاهد صورا لها فى عام ١٩٤٩ م وهى فى حـالة معـالم واضحة . وقد اشار الى ان موضع تلك الزرائب كان بالقرب من ملتقى خـور جاندا مع الطريق العام بين واو وراجا . ويقـول القـدماء ان الأشـجار التى اخترق جذورها رصـاص الحـرب بين جيسى باشـا وسـليمان الزبير لازال بعضها قائما منذ عام ١٨٧٩ م .

---

(١) نعوم شقير

وإدريس ابتر كان قد عمل متعاونا مع الزبير باشـــا فترة فى بحـــر الغـــزال ولكنه اختلف معه ولم يكتفيا كلاهما بالانفصال ولكنهمـــا اشـــعلا نار عداوة مستعرة بين رجالهما استمرت بعد انقطاع الزبير باشا عن بحر الغزال لتزيد اشتعالا مع سليمان الزبير . ويبدو ان إدريس كان انكى واوســع حيلة مـــن سليمان الزبير الذى كان يعتمد على الشجاعة والقـــوة بغير حـــاجة للدهـــاء والذكاء ولهذا خسر معاركه مع جيسى باشا الذى وجد تعـــاونا وســـندا مـــن إدريس وغيره من رجال العصابات الاخرى . وكان موضع رئاســـته يســـمى « ديم إدريس » .

چون كلنزنك :

هذا الخواجة لم نعثر على معـــرفة اصـــله وجنســـيته ويبدو انه كان احـــد الافاقين المغامرين الذين سمعوا بفراغ افريقيا من الحضارة والحكومات كما سمعوا بثراء البلاد بشتى أنواع الخيرات الطبيعية فارتادها مثل غيره .

ويبدو انه حصر نشاطه فى مناطق غرب واو مع قبائل اندقو وقـــولو ولم يكن له شنان ينكر وكل ما عرف عنه ان إدريس ود ابتر قد نهـــب زرائبه وبضـــائعه وكل ممتلكاته كما ذكرنا فى الحديث الخاص بإدريس ابتر .(١)

ارباب الزبير عدلان :

وهذا المغامر من قبيلة الجعليين وقد كان صديقا ومتعاونا مع الزبير باشـــا رحمة ولكنه بعد رحيل الزبير اقام زرائبه الخاصة به فى مكان اطلق عليه (ديم ارباب) فى منطقة (القولو) ثم انضم اليه كثيرون من قبيلة (ســـيرى) الذين هربوا من ضغط سلاطين الزاندى فى الجنوب .

وقد عرف ارباب بانه كان اكثر التجـــار ايواء للشـــماليين مـــن رواد بحـــر الغزال حتى ان الديم المنسوب اليه كاد ان يكون منطقة شـــمالية اكثر منهـــا جنوبية وكذلك كان ارباب ورجاله على صلات مصـــاهرة وعلاقـــات ودية مـــع سكان المنطقة وصارت بعض القبائل الاخرى تاوى اليه فى منطقته .

---

(١) سانت اندريا

ديم بكير :

كان بكير هذا تركى الاصل وعلى علاقة مع كوشـوك على ولم تعـرف عن مغامرات كثيرة ولكنه كان مزواجا قيل ان عدد اسرته عند وصول جيسى باشا لبحر الغزال قد بلغ نحو ٤٠٠ من ابناء وبنات واحفاد .

ولكن المعلومات لم تثبت لصاحب الديم اى حروب أو مغامرات .

الدخول من الغرب :

كل اولئك ممن ذكرنا من المغامرين دخلوا بحر الغزال من الشرق عن طريق النيل ثم مشرع الرك ولكن فى عام ١٨٥٦ م بدأ تسرب كثير مـن السـودانيين العرب الذين هربوا من بطش سلاطين الفور الى داخل بحر الغزال عن طريق منطقة الرزيقات وحفرة النحاس الى منطقة راجا وشرقها .

ويقول (ريتشارد جراى) فى كتابه ان معـظمهم انضـم فى اول الامـر الى (ادريس ود ابتر) الذى وضع زرائبه قرب منابع نهر (بونقو) ثم تسربوا الى مناطق اخرى كثيرة . وكان رؤسـاء قبيلة (كريش) يفـرضون ضرائب على (الجلابة) الشماليين ولكنهم تكاثروا حتى سيطروا على السلاطين والمنطقة وكانت تجارتهم فى بادىء الامـر مـن الملابس القـطنية والحلى النحـاسية والزجاجية وغيرهـا واشـتروا بذلك سـن الفيل والعسـل والجلود وبعض الاسلحة النارية التى انتشرت هناك .

وكان بعض (الجلابة) وكلاء لتجار كبار فى كردفان ولذلك انعشوا اسـواق غرب بحر الغزال حتى ابتلعتهم فى آخر الامر زرائب المغامرين فى انحاء بحـر الغزال فتخلوا عن وكالاتهم واستقلوا بانفسهم .

الفصل الثالث

الحكم التركى المصرى لبحر الغزال

الحكم التركى المصرى

كانت مناطق اعالى النيل وبحر الجبل قد خضعتا لغـزو الفتح المصرى على يدى السير صمويل بيكر والجنرال غردون باشا من بعده فى السـبعينات مـن القرن التاسع عشر فى عهد الخديوى اسماعيل الذى كان على درجة قصـوى من الاهتمام بهدفين هما :

١ ـ ضم أكبر رقعة من الارض الأفريقية التى يجرى عليها النيل الى مصر عن طريق الاستعمار والامتلاك واكتشاف المنابع .

٢ ـ وقف تجارة الرقيق التى كانت منتشرة ومزدهرة فى جنوب السودان على ايدى مغامرين من الاتراك والأرمـن والمصريين والمغـاربة وغيرهـم ـ اما السـودانيون مـن عرب شـماليين أو زنوج جنوبيين ممـن عملوا فى مغامرات تجارة الرقيق فقد كانوا مستخدمين فقط لرواد تجـارة الرقيق وخاصة فى بداية المغامرات .[١]

ومع ان الحاكمين صمويل بيكر وتشارلس غردون لم ينجحـا فى مهمتهمـا بالقدر المطلوب الا ان منطقة بحر الجبل ظلت تحت الحكم المصرى المباشر ولم يحدث لممثلى الحكومة الخديوية المصرية ان انسـحبوا أو قـاموا بجـلاء اختيارى عن منطقة احتلوها بحد السيف أو برضاء أهلها .

وحتى بعد اعلان المهدية وانتصار كرم الله كركساوى على حـامية امـادى وما حولها وزحف عمر صالح بين بور ومنقلا والرجاف فان امين باشا مـدير المديرية لم يستسلم برغم انقطاع صـلته بالخـرطوم التى فتحهـا المهـدى وبالقاهرة التى تخربت المواصلات السلكية بينها وبين السودان كله .[٢]

اما بحر الغزال :

كان ذلك هو الوضع فى الاستوائية أو ما كان يسمى آنذاك (ببحـر الجبل) اما بحر الغزال فقد تركت لمصيرها مع المغامرين من تجار الرقيق الذين كانت تقوم بينهم معارك لحيازة مناطق النفوذ من غير ردع من الحكومة التى كانت تسيطر على السودان كله منذ بداية الفتح المصرى فى ١٨٢١ .[٣]

---

(١) مصر فى السودان « بروفيسور ريتشارد هل »

(٢) نعوم شقير

(٣) السودان الجنوبى ـ ريتشارد جراى

وفي عام ١٨٦٩ وصل الى بحر الغزال مغامر مصرى اسمه محمد الهلالي بجيشه وعتاده ليقيم ادارة مصرية في بحر الغزال بموجب اوامر خديوية واصطدم فور وصوله بالمغامر السوداني الاكبر الزبير رحمة منصور وهو جعلي (جميعابى) من شمال مديرية الخرطوم كان قد وصل بحر الغزال في عام ١٨٥٦ وشيد خلال عقد واحد من السنين امبراطورية تجارية واسعة جعل مركز رئاستها اخيرا في بلدة (ديم زبير) غرب واو .

واستطاع الزبير رحمه بشجاعته وسعة حيلته وقوة شخصيته بين سلاطين بحر الغزال وزعماء عشائرها ان يهزم الهلالي ويقتله في معركة حاسمة في غرب منطقة واو وان يستولى على كل سلاح الحكومة المصرية وعتادها مما كان عند الهلالي .[١]

وكان الزبير رحمة يعاني كثيرا من اعتداء عرب الرزيقات على تجارته التي كانت تتخذ طريقها بديارهم الى كردفان فالخرطوم فمصر . ولما وجد نفسه قويا بالتسلح الجديد وذا معنويات مرتفعة بانتصاره على الهلالي او بالاحرى على حكومة الخديوى زحف نحو الرزيقات فأوقع بهم هزيمة منكرة واملى عليهم شروطا قاسية فيما يختص بقوافل بحر الغزال ومسئوليتهم عن حمايتها حتى تجتاز دارفور كلها بحدودها المترامية الأطراف .

وهنا عرف الخديوى اسماعيل ان ارسال قوة لاخضاع الزبير رحمة واحتلال بحر الغزال قد غدا امرا مستحيلا من حيث النفقة وضمان الانتصار فلم يجد بدا من أن يعلن رسميا تعيين الزبير رحمه مديرا لبحر الغزال يمثل الحكومة الخديوية مع لقب «بك» ، وهو قرار توخى فيه الخديوى اسماعيل اختيار اخف الشرين ضررا بالنسبة لهيبة الحكم المصرى في السودان .[٢]

وباغراء المنصب الجديد والمعنويات المرتفعة والتسلح المكتمل من كل الوجوه طمع الزبير رحمه في فتح دارفور التي كانت سلطنته مستقلة لا تتبع الخديوى وترك ابنه سليمان الزبير رحمة على رئاسة بحر الغزال ورعاية مصالحه الخاصة التي لم يؤثر فيها تعيينه مديرا للمديرية بصفة رسمية .

وتعرض سليمان الزبير لمؤمرات ومكايد المنافسين من المغامرين الآخرين وعلى رأسهم إدريس ابتر وهو احد الدناقلة الانكياء الذى استطاع ان يقنع

(١) مذكرات الزبير باشا رحمة

(٢) مذكرات الزبير باشا رحمة

الجنرال غردون بأن يخلع عليه منصب مدير بحر الغزال بدلا من سليمان الزبير فنشبت بينهما مواقع حربية ونزاعات لم تقف عند حد.[1]

وحينما كان سليمان الزبير يعتمد في خصومته لادريس ابتر على تفوق سلاحه وقوة رجاله من عصبيات الجعليين ومن جنود الزبير المحليين الذين دربهم واكتسب ثقتهم ـ كان ادريس ابتر يعتمد بقدر اكبر على تصيد اخطاء سليمان الزبير مع الحكومة حتى استطاع اخيرا ان يقنع غردون باشا في الخرطوم بتمرد سليمان الزبير وخروجه على الحكومة والخشية من استيلائه على بحر الغزال ودارفور وبترهما من كيان الدولة.

ويبدو ان سليمان الزبير ـ بعد ان ايقن بتحديد الخديوى اسماعيل لاقامة والده الزبير باشا[2] ـ قد قام فعلا بما يدل على نية تمرده وخروجه على القانون انتقاما لمعاملة الخديوى لوالده الذى فتح دارفور بعد انتصاره على السلطان « ابراهيم قرض » في معركة منواشي ورفع العلم المصرى على سارية قصر السلطان في الفاشر في ٣ / ١١ / ١٨٧٤ .

ولم يكن للجنرال غردون بد من أن يخضع سليمان الزبير للدولة وسيطرتها فارسل حملة عسكرية بقيادة جنرال ايطالى اسمه « رومولو جيسى Romolio Gessi » . وزحف جيسى باشا بجيشه من الاستوائية عن طريق رمبيك واستولى على واو في ديسمبر ١٨٧٨ ثم زحف الى غرب بحر الغزال ليحاصر سليمان في مركز رئاسته (ديم زبير) .

وسنحت لسليمان الزبير فرصة التدليل على عدم تمرده وانه كان ضحية تآمر من منافسين وطامحين طامعين ولكنه بتوتر اعصابه مما حدث لأبيه تحدى جيسى باشا الذى اقتحم بحر الغزال غازيا محاربا قد آثر ان يرمى بثقله بكله في أتون حرب ضد الحكومة وجيشها برغم نصائح قواده ومستشاريه فاضطر (رابح الزبير)[3] ان يتخلى عن سليمان بثلث الجيش واتجه غربا نحو افريقيا الاستوائية .

---

(١) مصر في السودان ـ بروفيسور ريتشارد هل

(٢) منح لقب باشا بعد فتحه لدارفور ولكن الخديوى خشى من طموحه على ضياع السودان كله من يد مصر فاستبقاه محتجزا في مصر (حلوان)

(٣) مذكرات الزبير باشا رحمة

ودخل سليمان فى حرب انتحارية لعدم تكافؤ قوته وعتاده حتى تمكن جيسى باشا فى ١٨/٧/١٨٧٩ من مفاجأته فى مكمنه وقتله مع عدد كبير من بنى عمومته وجنده. وقد سلك القائد الايطالى فى تنفيذ اعدامهم طريقة القسوة الرومانية القديمة بان كبلهم بالحديد وربطهم على جذوع الاشجار وصار يرميهم بالرصاص دفعة بعد دفعة بعد ان مكن لجنده الحاقدين ولاعداء سليمان من العرب الشماليين من ضربهم وأيذائهم.

وبعد انتصار رومولو جيسى تعين مديرا لبحر الغزال فى فترة ما بين ١٨٧٩/١٨٨١ ولكن الانتصار العسكرى لا يشكل بالضرورة نجاحا اداريا فى الاقليم ولذلك فان جيس باشا الذى تسلم اقليما مهدما ومخربا ومجزءا لم يستطع ان يلم شمله ولم يجد طريقا لاى مورد مادى يكفى حتى لطعام الجند فضلا عن نفقات العتاد والبناء والخدمات ايا كان حجمها.

ومما يؤخذ على الجنرال الايطالى انه ظل يطارد التجار الشماليين فى غرب بحر الغزال ويحكم باعدامهم امتدادا لسياسة ابادة كل ما يتعلق بسليمان الزبير وقد ضاعت أرواح كثيرة لم تكن لها صلة بالزبير وابنه سليمان بل أعدم بعض من كانوا اعداء لسليمان لأنهم لم يعطوا الفرصة لاثبات شخصياتهم وهوياتهم وسلوكهم السابق كما أعدم بعض السلاطين الذين تعاونوا مع الزبير باشا من قبل بالرغم من اثبات قطع صلاتهم مع سليمان الزبير. ولكن جيسى باشا لم يستطع ان يفعل شيئا فى دار الدينكا الذين اعتصموا واعتزلوا حكمه.

جيسى باشا ودار الزاندى:

كان الزبير باشا رحمة قد غزا دار الزاندى عن طريق سياسة «فرق تسد»[1] بين سلاطين الزاندى المتنافسين حتى استطاع ان يهزم هذا بجيش ذاك وقد اقتضت سياسة الملاينة والملاطفة والدبلوماسية ان يتزوج بنت (السلطان تكما) أحد سلاطين الزاندى العتاة ويجذبها اليه عاطفيا ثم يستخدمها بطريقة ماكرة ضد ابيها فيهزمه[1].

(١) مذكرات الزبير باشا

وتمكن الزبير باشا من الاستيلاء على كثير من ارض الزاندى فى شكل امبراطورية تخضع جميع اطرافها لحله وربطه وادارته التجارية والعسكرية ولكنه عندما اعتزم فتح دارفور ونفذ الفكرة ترك جيشا عرمرما بدار الزاندى كما ترك وكلاء وعملاء زاد عددهم بوصول اعداد اخرى من المغامرين العرب لدار الزاندى وبخاصة بعد ان علموا ان ليس للزبير باشا من عودة للجنوب وان ابنه سليمان قد قتل وابيدت كل قوته فى ديم زبير .

ومد الجنرال جيسى باشا عينيه لسلاطين الزاندى بعد فراغه من معارك الغرب والوسط للمديرية وحاول الاتصال (بالاقنقارا) كل على حدة ولكنه ادرك بأن سيادتهم قد تقلصت وان نفوذهم لم يعد كما كان من قبل . وكان لزاما عليه ان يشن حربا ضروسا ضد العرب المسيطرين على دار الزاندى ولكنه لم يكن واثقا من ان قبيلة الزاندى نفسها ستكون فى عونه ونصرته لانه علم ان طريقة حكم العرب بين الزاندى كانت تجارة محصنة وان كثيرا جدا من البارزين فى الزاندى يستفيدون باقدار خيالية بالتعاون مع العرب وليس من المحتمل ان ينصروا الحكم المصرى عليهم[١] .

وبين الاقدام والتردد رأى الجنرال رومولو جيسى ان يذهب الى اهله فى اجازة مرضية بعد الجهد الذى بذله فى تصفية سليمان الزبير وجيشه ولكنه لم يكد يصل ميناء السويس بعد ان غادر سواكن حتى توفى متاثرا بمرض شديد الوطأة .

وانطوت بوفاة الجنرال جيسى صفحة الحكم المصرى لبحر الغزال لان لبتن بك الذى تعين بدلا عنه لادارة المديرية وركامها لم يجد وفرة من الامكانيات لانقاذ ما يمكن انقاذه بل لم يجد متسعا من الزمن ليحقق اى قدر من النجاح الادارى لان المهدية اعلنت عام ١٨٨١ وفتكت بكل حملات الحكومة العسكرية فى عام ١٨٨٢[٢] ثم فتحت الابيض وقضت على حملة هكس باشا فى عام ١٨٨٣ واخيرا هجم عليه الامير كرم الله كركساوى فى عام ١٨٨٤ واستولى على بحر الغزال واخذ حاكمها اسيرا فى سجن المهدى . وسيأتى تفصيل ذلك فى الفصل التالى .

---

(١) ارض وراء الانهار – روبن كولن

(٢) حملة الشلالى وحملة راشد باشا

ومما ينكر للجنرال الايطالى جيسى باشا فى بحر الغزال انه بعد ان صـ
تجارة الرقيق فى معظم الزرائب وطرد الاجانب العاملين فيها والجلابة
الشمال عمد الى التفكير فى الموارد المالية للحكومة وللاهالى(١) وبخا
حينما علم ان تصدير سن الفيل مورد محدود سينتهى يوما ما .

ولانه راى فى المناطق الخصبة من بحر الغزال بعض شجيرات القطن فقـ
كتب للجنرال غردون مقترحا عليه ان يستخدم القوة البشرية التى انقذت من
زرائب التجار فى اقامة مشاريع قطن مصرية على نطاق واسع لتنتج كميا
وفيرة من القطن يمكن للحكومة ان تسوقها فى الخرطوم ليكون عائدها ميزانيـ
لبحر الغزال لمواجهة نفقات القوات النظامية والخدمات الضرورية .

وفى نفس الوقت فكر جيسى باشا فى الاستفادة من خيرات بحر الغزال
الاخرى . وبعد ان جمع كل المخزون فى الزرائب من سن الفيل وباعه فى
الخرطوم بمبلغ تسعين الف جنيه ـ زرع مقدارا متواضعا من القطن على
سبيل التجارب فانتج نحو الف قنطار كما جمع الف قنطار من التمر الهندى
والف قنطار من المطاط وكميات ضخمة من عسل النحل وشمعه مما عاد على
الحكومة والعاملين برخاء مادى واضح .

ثم وضع جيسى باشا مخططا مدروسا لزراعة الارز بمراقد المياه وكذلك
زراعة قصب السكر ومشروعا اخر للاستفادة من الاخشاب الجيدة من غابات
بحر الغزال ترسل للخرطوم وتوفر استيرادها من اوربا . كما ترك مشروعات
للاستفادة من مناجم النحاس من منطقة (حفرة النحاس) ومناجم اخرى
هناك للحديد وجد ان قبائل الجور البونقو يستخدمونها لصنع الآلات والسلاح
الأبيض .

ومع ان غردون باشا الذى كان يائسا من بحر الغزال قبل حملة جيسى قد
وافق على هذه المشاريع إلا ان الاجل لم يطل بالجنرال جيسى لينفذ مشاريعه
تلك ولا اظن انها نفذت بعد ذلك حتى مرحلة الحكم الثنائى ولا تزال بحر
الغزال ارضا خصبة لخيرات كثيرة فى ظاهر الارض وباطنها .

---

(١) سانت اندريا

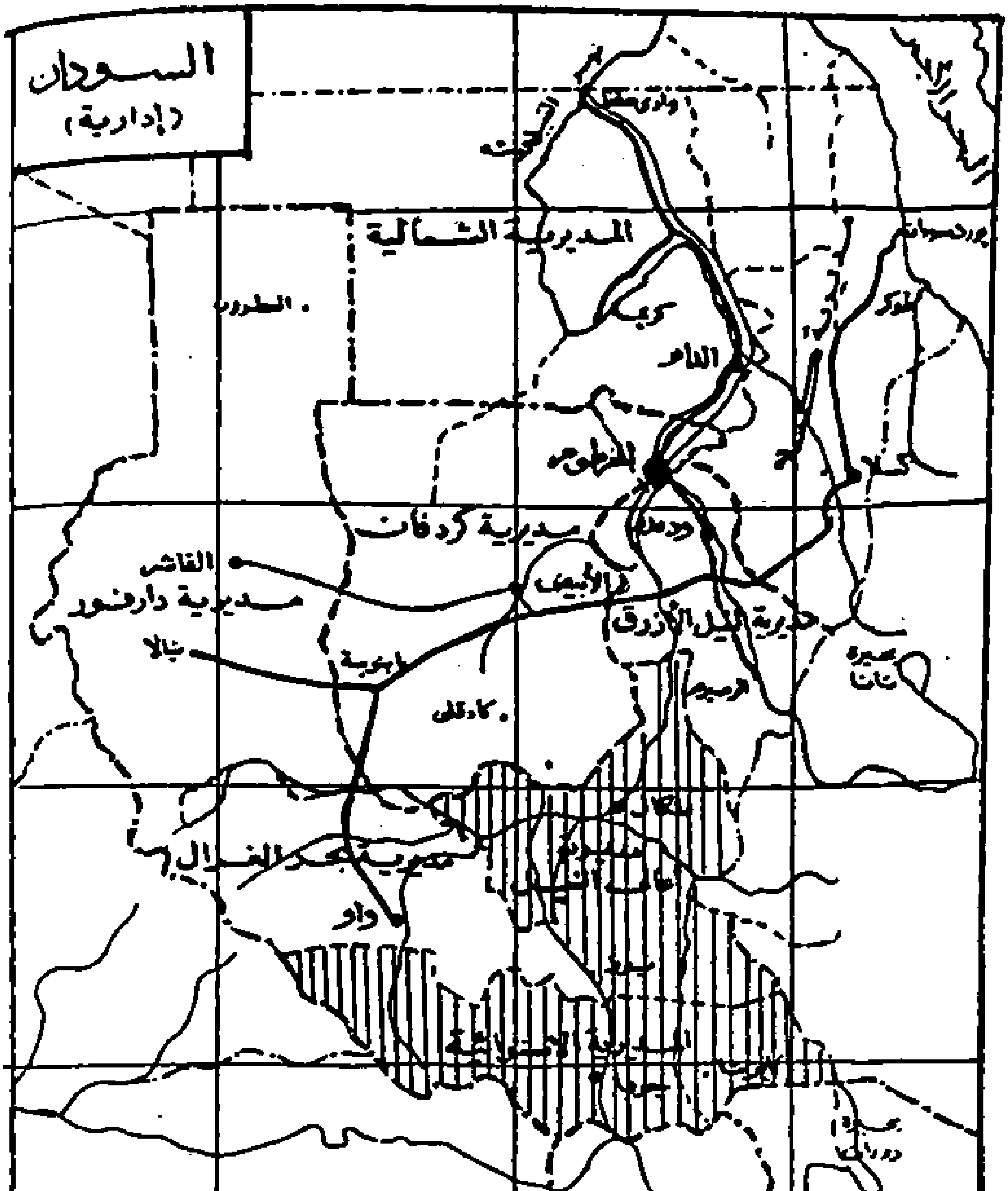
واصعب ما كان يواجه بحر الغزال ويضيع منافع الانتاج هو النقل والمواصلات لان نهر الجور غير صالح للملاحة إلا فى فترة موسمية ضيقة جدا وعدم وجود طرق برية بطريقة عملية فى الماضى .

ويقول (ريتشارد جراى) مؤلف كتاب « تاريخ السودان الجنوبى من ١٨٣٩ الى ١٨٨٩ » عن جيسى باشا فى بحر الغزال انه حكم المديرية بعد حملاته العسكرية وتصفيته جيش سليمان الزبير لمدة خمسة عشر شهرا فقط ومع ذلك فان اداءه الادارى والاقتصادى فى تلك الفترة البسيطة كان مدهشا وعظيما بالرغم من انه كان يعمل بغير أعوان اداريين وخبراء فنيين واقتصاديين بل لعله ـ على حد قوله ـ كان يعمل منفردا تقريبا .

ومن الواضح تاريخيا ان جيسى باشا بعد ان استقال تشارلس غردون باشا عن منصبه كحاكم عام للسودان عام ١٨٧٩ م لم يرغب فى العمل تحت رءوف باشا فعمد الى انهاء خدمته مع الحكومة المصرية بالسفر فى اجازة الى ايطاليا يعود بعدها لمصر لينهى خدمته فى السودان . ولكن خروجه من بحر الغزال بنهر الجور ومواجهته للسدود المائية ومحاولته للخروج منها قد احتاجت لشهور فى احوال جوية غاية فى السوء مما اضناه واعياه وانهك قواه ثم وصل سواكن فى رحلة على ظهر جمل قضت على ما تبقى من قوة مقاومته فمات فى السفينة التى اقلته للسويس ودفن هناك فى ٣٠ ابريل ١٨٨١ م .

واستقالة الجنرال غردون باشا من السودان كان سببها كما هو معروف انه لم يرض عن الاطاحة بعرش الخديوى اسماعيل الذى كان يعتبره صديقا وهو الذى استدعاه للعمل حاكما للسودان الجنوبى ثم حاكما للسودان كله وكان غردون عاطفيا يرى فيما حدث للخديوى اسماعيل ظلما شديداً لأنه هو الذى فتح الفتوحات كلها فى شرق افريقيا وجنوب السودان ودارفور وكون الامبراطورية المصرية الواسعة .

اما عودة غردون باشا للسودان فى عام ١٨٨٤ م إبان المهدى فى عهد الخديوى توفيق فهى المرة الثالثة لحكمه الذى قتل فيه بالخرطوم على يد الامام المهدى وجيشه .


السودان
(إدارية)
المديرية الشمالية
مديرية كردفان
مديرية دارفور
مديرية بحر الغزال
الخرطوم
الفاشر
نيالا
الأبيض
واو
الدامر
كادقلي

الفصل الرابع

المهدية فى بحر الغزال

المهدية فى بحر الغزال

الاحداث التى غيرت وجه الحياة فى بحر الغـزال بعـد عام ١٨٨١ م تعـود اسـبابها بطـريقة مباشرة الى الاحـداث الكبرى التى جـرت فى مصر وفى السودان الشمالى وقيام ثورة المهدية التى ابعدت بانتصارات سريعة وباهرة سلطة الحكم المصرى عن كل السودان .

ولهذا فانه قد صار لزاما لربط الاحداث مع بعضها ان نبدأ هـذا الفصـل بخلفية شاملة لكل تلك الاسباب قبل ان نتحدث عن احداث بحر الغزال كاقليم قائم بذاته فى مرحلة معينة .

انهيار فى مصر :

مـن المعـروف ان الانهيار الادارى فى مصر والذى امتد للسـودان كانت اسبابه اقتصادية مالية بسبب تصرفات الخديوى اسماعيل واسرافه وطموحه الذى تجاوز مدى امـكاناته المالية بكثير ونجـاحه بعـد ان تم له توسـيع امبراطوريته الافريقية التى شملت الحبشـة وارتيريا والصـومال ودارفـور والتوغل فى المناطق الاستوائية وما حدث من عجزه عن اسـتقرار معـظم تلك المناطق وخسائره فى الارواح والعتاد والاموال فى حربه مع الحبشة .

ولان بريطانيا وفرنسا كانتا الدولتين المولتين لمصر فـانهما لتراكم الديون على الخديوى اسماعيل وعجزهما عن كبح جماح اسرافه وعجزه عن السداد قد عمدتا الى خلعه من العرش وتنصيب ابنه الخديوى توفيق على عرش مصر مع وضع مستشارين ماليين بصلاحيات تامة لتولى مراقبة التصرفـات المالية وكان ذلك فى يولية ١٨٧٩ م .

وكان الخديوى توفيق ضعيفا بحيث لم يستطع ان يحقق الاستقرار فى مصر ولا حتى فى نطاق الجيش المصرى الذى كان يديره فى مصر ضباط من اصـول تركية مما اوغر صدور ذوى الاصالة المصرية من الضـباط والجنود فنشـبت ثورة احمد عرابى باشـا فى اواخـر ١٨٨١ م . وفى يناير ١٨٨٢ م اصـدرت بريطانيا وفرنسا مذكرة سياسية موحدة تعلنان فيهـا قيام حمـاية لسـلامة عرش توفيق وزادت تلك المذكرة من اشعال الثورة ضـد الخـديوى ممـا دعا

بريطانيا لضرب الاسكندرية باسطولها وانزال جيش كامل لمنازلة احمر عرابى باشا الذى انهزم فى معركة التل الكبير يوم ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ م وبذلو صارت مصر تحت الحماية البريطانية المباشرة .

ولاهتمام الانجليز بنواحى الصرف المالى فى كل انحاء الامبراطورية المصرية فان السيطرة المصرية على كثير من الاماكن قد تقلصت لان امدادات التموين العتاد الحربى وحتى مرتبات الجنود فى الاقاليم الافريقية قد تعثر صرفها لضيق الموارد .

وبهذا الضعف من الخديوى توفيق وإفلاس الخزينة المصرية عن الصرف على مستعمرات مصر نهب الانجليز والفرنسيون والايطاليون مناطق شرق افريقيا فى الصومال وارتيريا ونهبت الحبشة منطقة هرر المصرية وضمتها اليها ولم يبق لامبراطورية مصر فى البحر الاحمر من ميناء سوى (سواكن) لانها تقع فى السودان .

وباستقالة غردون باشا فى عام ١٨٧٩ م احتجاجا على عزل الخديوى اسماعيل تولى حكم السودان بالانابة رءوف باشا الذى كان ضعيفا فى السودان وليس بذى نفوذ فى مصر فتاثرت مديريات السودان بضعف الادارة فى الرئاسة وكان نصيب بحر الغزال فى ذلك كبيرا وبخاصة بعد ذهاب جيسى باشا .(١)

ومع ضعف الادارة المصرية بوجه عام تحركت فى نفوس السودانيين العرب كل كوامن البغضاء والاحقاد ضد الحكام لما لاقوه من بطش غردون باشا واعوانه بهم فى بحر الغزال والأسلوب الذى قتل به سليمان الزبير وكل اعوانه من بنى عمومته وغيرهم وابادة عنصر الجلابة فى غرب بحر الغزال ووسطها وكذلك طرد كبار التجار ومصادرة مرافقهم التجارية فى دارفور وكردفان بدعوى محاربة تجارة الرقيق ثم ما حدث من احقاد كان يجترها عرب البقارة فى دارفور وكردفان لان الحكومة فرضت عليهم ضرائب القطعان على البقر بطريقة ارهقتهم وهو امر لم يكونوا قد اعتادوا عليه بالاضافة الى انهم كانوا يرونه اهانة وإذلالا لانه جزية يفرضها الاقوى على الاضعف .

---

(١) مصر فى السودان ـ ريتشارد هل

وبهذه الاحقاد وتلك البغضاء هيأت الحكومة المصرية الجو النفسى فى نفوس السودانيين العرب لعداوتها ومناجزتها متى حانت الفرصة لذلك . ولم يكد المهدى يعلن دعوته الدينية ضد الحكم التركى المصرى حتى انضمت اليه كل قطاعات التجار كبارهم وصغارهم وكل القبائل المتأثرة بالضرائب وسوء الأسلوب الذى تجبى به فهى فرصتهم الوحيدة للانتقام والاطاحة بالحكومة لانهم كانوا يفقدون القيادة التى توحد صفوفهم ضد عدوهم فوجدوها فى دعوة الامام المهدى .

الثورة المهدية :

مع ان موضوع هذا الكتاب عن بحر الغزال لا يتحمل التوسع فى الحديث عن المهدى ومرحلة المهدية كلها ـ إلا انه يبدو من المفيد أن نورد هنا تاريخا موجزا جدا يعين القارىء على فهم نشأة المهدية وامتدادها الى بحر الغزال وغيره من الاقاليم ويعينه على ربط الاحداث المسلسلة .

ولد الامام المهدى عام ١٨٤٤ م فى دنقلا ودرس القرآن فى قرية كررى شمال ام درمان ودرس الفقه على يدى الشيخ محمد الخير الغبشاوى بقريته (حلة الغبش) غرب بربر ثم تصوف وسلك الطريقة السمانية على يدى الاستاذ محمد شريف نور الدايم ثم اختلف معه وجدد عهد الطريقة على الشيخ القرشى ود الزين فى منطقة (الحلاوين) بالجزيرة .[١]

ولما كانت اسرته قد رحلت فاستقرت فى جزيرة ابا بالنيل الابيض فانه قد اتخذها مغارة للتعبد وخرج منها بتنظيم كامل لدعوة دينية شاملة وتخطيط دقيق لدولة دينية اسلامية لا تقف حدودها عند السودان وحده . وبدأ بالمنشورات ارسلها لكل انحاء السودان حاسمة ملتهبة لاشعال ثورة عارمة ضد الحكم المصرى والتركى فى السودان وارسل منشورات بتلك الدعوة لحاكم السودان فى الخرطوم فاستهان بالامر فى بادىء الامر ثم ارسل حملة عسكرية لحمله من ابا للخرطوم فأبادها بانصاره وسلاحه البدائى فى ١٨٨١/٨/١٢ . . وكانت تلك هى الصرخة العملية الداوية التى لفتت اليه انظار الناس من كل مكان فى السودان .

---

(١) نعوم شقير

ثم انتقل المهدى بجيشه وعتاده الى ارض الله الواســعة غرب النيل الابيض نحو (جبال تقلى) داعيا وغازيا حتى استقر فى سفوح جبل قـدير فتقاطر اليه وفود الزعماء والرؤساء والتجار والقبليين وكل الحـاقدين على الحكم المصرى كما ذكرنا وبايعوه على الجهاد فى سبيل الله وعلى تحرير البلاد . ولقد استطاع الامام المهدى فعلا ان يحول اتجـاه الناس مـن المغـامرات للنهب والكسب الى جهاد فى سـبيل الله ومـن حياة النزاع الى حياة التبتل والعبادة والطموح لنصرة الدين .

وكانت اقرب حامية عسكرية حكومية لمنطقة قدير هـى حـامية (فشـودة) باعالى النيل التى رأى مديرها (راشد بك) ان يغتنم الفرصة ليحقق انتصارا بسحق المهدية يعلو به ذكره ويجد به تقديرا وترقيا ولهذا ـ وبغير اسـتشارة الحكومة فى الخرطوم ـ جرد جيشه النظامى وهو يضم مئات ومعه جيش اخر غير نظامى من قبيلة الشلك واتجه نحو المهدى فى قدير بطـريقة سرية تعمد فيها ان يخفى زحفـه ولكن امـراة مـن قبيلة كنانة كانت قـد رأت الجيش فاسرعت على بعير لها واخبرت المهدى الذى دبر لهم كمينا من جنبات الجبال فابادهم جميعا وكان راشد باشا اول القتلى وكان هـذا الانتصـار صرخـة اخرى اشد دويا من المهدى لكل انحاء السودان بصحة دعواه وجدية تخطيطه واهدافه التى سجلها الامام المهدى فى ديسمبر ١٨٨١ م فجن جنون الحكومة القابعة فى الخرطوم وكاد الامر يفلت من يدها ولكنهـا رأت أن ترمـى بأخـر سهم لها لتحطم المهدية فجمعت جيشا مـن مختلف حـاميات السـودان بلغ تعداده نحو اربعة الاف جندى بقيادة يوسف باشا الشـلالى بالاضـافة الى امدادات انضمت اليهم من الابيض وبقية حاميات كردفان .

وتجلت العبقرية العسكرية مرة اخـرى عند المهـدى فصـبحهم فجـر يوم ١٨٨٢/٥/٣٠ م بهجوم لم تقم لهم بعده قائمة وقتل الشلالى باشـا وكثير مـن رجـالات الادارة الاهلية الموالين للحـكومة وابيد الجيش كله وغنم المهـدى سلاحه وعتاده ولم تعد للخرطوم مقدرة بعد ذلك لمواجهـة الثورة الكاسـحة . واندلعت الثورة فى كل مكان من السـودان على ايدى الرجـال الذين امـرهم المهدى باشعالها وزحف المهدى نحو كردفـان ففتح الابيض فى يناير ١٨٨٣ م وهزم جيش هكس باشا الذى ارسـل مـن مصر فـاباده فى نوفمبر ١٨٨٣ م وسلمت دارفور كلها حكومة وقبائل ووفدت للمهدى وبينهم (سلاطين باشـا)

مديرها الذى اسلم واستسلم لان كل المنافذ قد سدت فى وجهه كما قال هو فى كتابه (السيف والنار) .

وزحف المهدى نحو الخرطوم التى كان قد ارسل جيوشه لحصارها فاقتحمها فى ٥ يناير ١٨٨٥ م وقتل غردون باشا الذى صمد رغم كل الفرص التى منحها له المهدى لينجو بنفسه ومن معه وسقط السودان كله تباعا فى يد المهدى ولم يبق للحكم المصرى فى السودان سوى حامية سواكن المحصنة .

لبتن بك فى بحر الغزال

مع ان جيسى باشا قد غادر بحر الغزال فى سبتمبر ١٨٨٠ م فان خلفه على إدارة المديرية لم يصل « واو » إلا فى آخر ١٨٨١ م . وخلفه هذا هو فرانك لبتن بك البريطانى الشاب الذى كان من تجار البحار المتجولين وعينه الجنرال غردون عام ١٨٧٨ م حاكما فى الاستوائية على اقليم (اللاتوكا) بشرق الاستوائية تحت رئاسة امين باشا مدير عام الاستوائية .

ووجد لبتن بك ان المشروعات الاقتصادية واجراءات الامن التى خططها سلفه جيسى باشا قد اهملت واختلت عن طريق سوء ادارة الموظفين الذين اشرفوا عليها كما وجد كثيراً من التجار الجلابة قد تحللوا من القيود التى كبلهم بها جيسى باشا وعادوا لمخالفاتهم للقوانين التى وضعت .

ولم يكن لبتن بك فى مثل قوة ادارة سلفه جيسى باشا فعجز عن الاخذ بزمام الامور فى بحر الغزال ومحاولة اعادة سيطرة الحكومة وكانت شخصية الزعيم الزاندى المستعرب (زيميو) اقوى من المدير وقد استعان بالموظفين الذين كانت ميولهم مع التجار العرب بسبب المنافع التى كانت تعود اليهم .

وفى اوائل ١٨٨٢ م ظهرت فى بحر الغزال طلائع اثار الثورة المهدية حين اعلن (السلطان جانقو) فى غرب بحر الغزال عصيانه وتمرده على الحكومة فى منطقته الواقعة على بعد مائة ميل غرب (ديم زبير) فهى بذلك تكون قريبة من دخول العرب وتسرب فكر الثورة المهدية لبحر الغزال ومن تاريخ هذا السلطان القريب انه كان عدائيا مع سليمان الزبير وقد امده الجنرال جيسى بالسلاح فصار شوكة فى جنب سليمان ومؤسساته فى الغرب .[1]

---

(١) السودان الجنوبى ـ ريتشارد جراى

ومن رأى (ريتشارد جراى) ان ثورة السلطان « جانقو » قد نشب بتحريض من الشيخ (مادبو على) زعيم الرزيقات الذى كان يدعو لثورة المهدية فى الغرب والشيخ مادبو على ومعه الرزيقات وكثير من قبائل البقارة الاخرى مثل الهبانية وبنى هلبة والتعايشة والمسيرية كانوا على خلاف وعداء مع الحكومة المصرية ومع جيسى باشا بالذات على حدود بحر الغزال التى يفصلها عنهم بحر الغزال . وعند اعلان المهدى للثورة هاجر اليه الشيخ مادبو فى قدير واشترك معه فى ابادة جيش يوسف الشلالى وعاد الى اهله مفوضا بامارة من المهدى ومزودا بكثير من السلاح الذى غنمه المهدى من موقعتى راشد والشلالى .

وبدا السلطان جانقو ثورته بقتل رجال الباشبزق التابعين للحكومة والاستيلاء على اسلحتهم مما دعا لبتن بك لتجريد حملة عسكرية ضده ولكن السلطان جانقو هرب والتحق بالشيخ مادبو الذى كان يحاصر حامية الحكومة فى (شكا) . وعاد جانقو بذخيرة ومدد فى السلاح ولكنه انهزم عند اللقاء مع جيش الحكومة وخسر نحو ستمائة محارب من رجال غرب بحر الغزال .

ومن ناحية اخرى تمرد الدينكا على الحكومة ولبتن بك بصورة صغيرة فى بادىء الأمر ولكنها سرعان ما شملت مناطق كثيرة . ويبدو أن الزعماء الروحيين عند الدينكا قد تاثروا فعلا بدعايات المهدية ضد قسوة الحكم المصرى التركى والضرائب التى يجبونها من البقر . وثورة الدينكا بدات بان قتلوا نحو خمس وسبعين من جنود الحكومة المكلفين بجمع الابقار من منطقة مشرع الرك وشحن سن الفيل الحكومية فى البواخر من ميناء المشرع .

واتسعت ثورة الدينكا ضد الحكومة بالقدر الذى اضطر لبتن بك الى استدعاء كل القوات النظامية من الغرب والشمال للوفود الى واو لمواجهات عسكرية ضد الدينكا . ومع ذلك فان الدينكا قد احتلوا مشرع الرك وقطعوا طريق الميناء على الحكومة . وفى الشرق اغار « الدينكا اقار » على حامية الحكومة برمبيك فى يوليو ١٨٨٣ م وابادوا كل من فيها من قوات الحكومة وهناك فى الشمال ثار الدينكا طوال وعصوا الحكومة وقتلوا سرية عسكرية كان على رأسها (رفاى انما) اليد اليمنى فى الحكم للبتن بك والذى كان

بعتبر اهم اعوانه للعمل الميدانى وبذلك فان لبتن بك قد انحصر فى وسط بحـر الغزال بين ثورة فى الغرب واخرى فى الشرق وثالثة فى الشمال انعزل عن اهم موانىء المديرية وهى مشرع الرك وعن الوصول للنيل وميناء شامبى بسـبب ثورة « الدينكا اقار » فى رمبيك .(١)

واستفاد الدينكا كثيرا من السلاح الذى انتزعوه من الحاميات العسـكرية والسرايا التى كانت تجوب بلادهم وابادوها وغنموا اسلحتهم وتعلم بعضهم طريقة استعمال السلاح النارى .

وكيل للمهدى :

واكتشف « لبتن بك » ان تمرد الدينكا قد امتد شـمالا وشرقـا حتى شمل بعض (النوير) الذين ساعدوا الدينكا فى عصيانهم المسلح كمـا اكتشـف ان الزعيم الدينكاوى (مايندوت) قد اعلن نفسه وكيلا للمهـدى ضـد الحـكومة المصرية وقد اظهر ذلك برفعه (للعلم الاخضر) الذى ارسله له المهدى . وقـال (ريتشارد جراى) ان بعض الزعماء الروحانيين (الكجور) فى دار النوير قد استمدوا تعليماتهم الروحية من المهدية لمواجهة الحكم المصرى .

ويبدو ان هذا التوافق الروحى بين المهـدية والدينكا والنوير كان مـرحليا مؤقتا بغرض الخلاص من الحكم المصرى التركى ولم يكن توافقا له جذور من العقيدة الملزمة باسـتمرارية التبعية على طـريقة « ان المصـائب يجمعـن المصابينا » .

والعرب من الناحية الاخرى لم يكن لديهم التفكير السـياسى الذى يقـودهم الى الاستفادة من الوحدة مع الدينكا لغرض مشـترك وهـدف وطنى سـامى لانهم ـ رغم اشتراك الدينكا لمصلحتهم ـ ظلوا يهـاجمون الدينكا مـن نواح اخرى بغرض الاسترقاق بل ان الرزيقات بقيادة الشيخ مـاديو كانوا فى عام ١٨٨٣ م ياربون الدينكا على بحر العرب بدلا من ان يهاجموا مرافق الحكومة بالرغم من بيعتهم للمهدى واتجاههم الدينى الجديد وبالرغم مـن ان الامـام المهدى لم يامر بذلك ولم يكن من اهدافه واغراضه بدليل ان المهدى قد اعطـى البيعة لزعيم الشلك فى « قدير » وامـره ان يهتم بنشر الدعوة بين اهله ويعلن الثورة على الحكومة فى اعالى النيل .

---

(١) سانت أندريا

وانكر ان (الرث كور فافيتى) قد قال لى فى ملكال عام ١٩٥٦ انه يحتفظ حتى الآن (بالجبة) المرقعة التى اهداها المهدى لجده سلطان الشلك فى قسيس بعد هزيمة جيش راشد بك فى ديسمبر ١٨٨١ م وذلك دليل على ان المهدى كان يتلمس عون القبائل له فى رسالته ضد الحكم المصرى التركى سواء كانت قبائل مسلمة أو وثنية . اما اتباعه من القبائل البدائية العربية فانهم لم يلتزموا بمضمون الرسالة الدينى أو السياسى أو الوطنى .

ولما استحكمت حلقات الضيق على بحر الغزال وحاكمها لبتن بك جاءهم الانقاذ من مدد ارسله امين باشا من « اللادو » فاستعاد رمبيك من الدينكا الثوار الى حظيرة الحكومة وانقذ واو نفسها من الانتفاضات المجاورة وساعدت فى هزيمة السلطان (جانقو) وقتله فى غرب بحر الغزال . ومع هذا المدد توالى العون بالمؤن الغذائية الى واو من السلطان زيميو بدار الزاندى فشعر لبتن بك واعوانه فى أواخر ١٨٨٣ بأن الامور قد عادت بعض الشيء الى استقرارها وان الأمل لاح بأن تنتهى حملات المقاومة وتبدأ عمليات الانشاء والتعمير بالنسبة للمديرية ذات الخيرات التى غرقت فى الدماء فترة طويلة بسبب التمرد والتمزق فى معظم انحاء الاقليم . ومع أن لبتن بك قد شعر بما لا يدع مجالا للشك ان السودانيين العرب والمستعربين معهم من أعوان الجلابة القدامى قد انتسبوا بوضوح للثورة المهدية التى تغلى مراجلها فى كردفان وبخاصة بعد فتح الابيض ـ فان لبتن بك قد رأى أن لا يبطش بهم خشية ان يلفت اليه نظر الثورة المهدية التى يرى انها مشغولة بمهاجمة الحكومة فى الشمال وحده وان بحر الغزال قد لا تكون مرصودة فى حسابات المهدى .

كرم الله كركساوى :

ولكن لبتن بك حاكم بحر الغزال لم ينعم كثيرا بهدوء البال واستقرار الاحوال لان الثورة المهدية قد استفحل امرها وتوالت انتصاراتها ودلت تحركاتها بانها لن تقف عند حد داخل حدود السودان ولا حتى خارج حدوده .

وبالرغم من الوضع الجديد المريح لبريطانيا فى مصر بعد ان اعلنت الحماية عليها عقب الانتصار على ثورة عرابى فى ١٨٨٢ م فان الجيش العرمرم الذى

ارسلته مصر الى السودان ويبلغ تعداده ، عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال الانجليزى هكس باشا ـ هذا الجيش اللجب الذى عبر الصحراء من الدويم للابيض من غيره خبرة بالطرق وموارد الماء قد تعرض للعطش ولما وصل ارض المعركة فى (شيكان) كان منهارا ومشتتا فقضى عليه المهدى فى ساعات معدودة وغنم كل ما كان معه من سلاح وعتاد وقتل الجنرال هكس وكل الضباط وكل الجنود ما عدا حفنه قليلة ابقى عليها طول الاجل فوقعت فى الاسر . وعاد المهدى عقب انتهاء المعركة يوم ٥ نوفمبر ١٨٨٣ م الى الابيض منتصرا مظفرا .(١)

وكان كرم الله كركساوى احد مشاهير تجار بحر الغزال من ابناء الدناقلة واحد المحاربين فى هزيمة هكس باشا فى شيكان فاقترح على المهدى ان يمده بجيش مسلح لضم بحر الغزال لانتصارات المهدية فتم له ما اراد وتحرك بجيش يبلغ نحو الخمسة آلاف مقاتل من المتوقين للجهاد بعد نشوة الظفر المتوالى لثورة المهدى . ولما دخل الجيش الى بحر الغزال تفرق الناس عن الحكومة ونصرتها وبقى لبتن بك مع نفر قليل لا يستطيعون قمع اى تمرد فضلا عن مواجهة جيش كبير منظم ومسلح ولم يكن له بد من التسليم التام لكرم الله كركساوى الذى اخذه اسيرا فى يوم ١٨٨٤/٤/٢٨ م . وقد جاء فى رسالة من لبتن بك الى امين باشا مدير الاستوائية فى « اللادو » اثبتها (ريتشارد جراى) فى كتابه قوله لامين باشا :

« لقد انتهى الأمر بالنسبة لى هنا . كل اتباعى التحقوا بالمهدى وسيستولى جيشه على المديرية بعد باكر وعليك انت ان ترى طريقا لهربك ونجاتك لأن جيشا مسلحا من ثمانى الى عشرة آلاف فى طريقه اليك » .

وكما ذكرنا من قبل فان الحكم المصرى التركى لم يكن له انصار فى بحر الغزال على الاقل فى مرحلة حكم لبتن باشا بدليل الثورات التى اندلعت ضده من غرب بحر الغزال وشرقه وشماله ولهذا فان انصراف القبائل عن نصرته والتحاقهم بجيش المهدى بقيادة كرم الله لم يكن مستغربا حتى بالنسبة للبتن بك نفسه . واذا ضاق الحكومون ذرعا بعهد كرهوه فانهم تلقائيا سيرحبون باى عهد جديد ياتى غازيا لعلهم يجدون فى كنفه ما كانوا يفقدون فى سابقه .

---

(١) نعوم شقير

ولان كرم الله كركساوى كان تاجرا متمرسا وحاكم اقليم سابق فى بحر الغزال قبل تعيين جيمى بك فانه يعرف قوانين الحرب التى تعارفت عليها الامم تقليدا فلم يصب لبتن بك باى ضرر بعد تسليمه وان لم يرض بالدخول فى الاسلام لان تلك مسالة شخصية وارسله مع بعض الغنائم للمهدى فى كردفان وظل لبتن فى السجن طوال المهدية .

الامير الختيم موسى :

نكرنا ان احتلال المهدية لبحر الغزال لمدى قصير فى ١٨٨٤ / ١٨٨٥ م على يد الامير كرم الله كركساوى الذى كان خبيرا بالمنطقة واهلها قد خلق لها انصارا فى غرب بحر الغزال بالذات وقد كان فى الامكان تنمية العلاقات الى مدى اوسع مع القبائل الاخرى لو ترك كرم الله ينظم ادارة ثابتة باسم المهدية هناك .

ومن اهم ما يجب ان ينكر هنا ان قبيلتى (فروقية والقولقلين) متجاورتان ومتحالفتان غير ان (فروقية) كانوا ضد المهدية بينما ظل (القولقية) انصارا للمهدية لفترة طويلة بعد جلاء كرم الله عن كردفان ولكن عدم اهتمام المهدية بالمنطقة واخبارها جعل القبيلتين يعودان مرة اخرى الى حلف وتعاهد يقرران به الدفاع عن أوطانهما ضد اى غارات محتملة من الشمال على يد امراء المهدية ولكن لم يحدث أن اغارت اى سرية من المهدية على بحر الغزال من الغرب حتى عام ١٨٩٥ م.

فى عام ١٨٩٥ غزت القوات البلجيكية بحر الغزال متوغلة الى شمالها الغربى وتسربت الاخبار عن طريق دارفور الى الخليفة عبد الله بأن البلجيكيين احتلوا بحر الغزال ووصلوا الى حفرة النحاس وخضعت لهم كل القبائل هناك . ولان طبيعة مثل هذا الغزو تدعو الى التخوف من توسعه وامتداده الى جنوب دارفور وكردفان ـ فان الخليفة عبد الله قد اهتم كثيرا بالامر فاصدر امره لحملة عسكرية كبيرة وسريعة لرد البلجيكيين على اعقابهم ولتعيد بحر الغزال الى حظيرة المهدية[1] .

---

(١) سانت أندريا

الحمـــــلة :

وكان الختيم موسى وهو من كبار امـراء التعـايشة على رأس جيش كبير ومسلح في منطقة جنوب كردفان عندما وصلته التعليمات بان يزحف على بحر الغزال فدخل عن طريق (شكا) بدار الرزيقات الى شمال غرب بحر الغزال . ومع ان القبائل كانت قد استسلمت للبلجيك الا انهـم لم يجـدوا منهـم مـن يحميهم من غزو المهدية ولم تكن لهم من انفسهم قوة يواجهـون بهـا الامير الختيم موسى فسلمت له قبائل فروقية وكارا وبونقو بغير شرط أو قيد .

وقد روى «سانت اندريا» في كتابه «قبائل غرب بحر الغزال» على لسـان سلاطين باشا الذى كان اسيرا عند الخليفـة بام درمـان قـوله اسـتدعاني الخليفة عبد الله ذات يوم ودفع الى بعدد من الوثائق مكتوبة باللغة الفـرنسية وطلب منى ترجمتها الى العـربية . وكان مـن بين تلك الرسـائل او الوثائق رسالتين من الضابط البلجيكى «كيثوللى» فيها اوامـر وتعليمـات ارسـلت لشيخ قبيلة (فروقية) فسـلمها للامير الختيم مـوسى . وكان منهـا صـورة معاهدة موقعة من القائد البلجيكى والسلطان حمدود موسى زعيم (فـروقية) تحوى الاعتراف بسيادة البلجيك على أرضه وقد شهد بتوقيعه على المعـاهدة السلطان (زيمبو) الزاندى والسلطان (تيقا) .

والواقع ان السلطان حمدود موسى عندما لم يجد من البلجيك مـا يمـكن ان يحميه من جيش المهدية سلم اوراقهم والمعـاهدة للختيم مـوسى والذى جعله منتدبا من حكومته المهدية ليرعى مصالح الناس باسمها وحكمها الاسلامى .

ومع اننا لم نجد من الوثائق ما يثبت بأن جيش المهدية بقيادة الختيم موسى لم يفعل شيئا بعد ان سلمت له القبائل الا ان كتاب «قبائل غرب بحر الغزال» قد ذكر في صفحة ١٧٦ بأن من قابلهم (سانت اندريا) من كبار السن في غرب بحـر الغـزال رووا له بان حملة الختيم مـوسى وغاراته كانت بالغـة الضرر بالدماء التى سفكت من الاهالى الذين هربوا للغابات خوفا من القتل والعذاب وقال ان كل اطفال سلطان (منقا) واسمه (كابندى) قد قتلوا .

وقال ايضا انه لحسن حظ قبائل غرب بحـر الغـزال ان الخليفـة عبد الله ارسل اوامر للامير الختيم بان يسرع لنجدة الامير محمود احمـد في دارفـور

ضد ثورة قامت هناك . وقال ان الختيم اخذ معه كثيرين من قبيلة (فـروقية) ورجالها كاسرى ونكر منهم سبيل ادريس ابن اخت السلطان حمدود موسى وابن السلطان نفسه وهو فيما بعد السلطان (فرتاك) المشهور الذى قال ان جرح اخيرا فى موقعة كررى .

ومما نعرف من حدوث عداوات بين (فروقية) القبيلة المسلمة وبين رجالات التبشير فى غرب بحر الغزال فانه لابد ان نأخذ ما كتبه « سـانت اندريا » عن قسوة الختيم موسى وعن (فروقية) بحذر وشك لانه حسبما ذكر قـد جمعه مما رواه شفاهة بعض من التقى بهم من كبار السـن الذين عاشـوا غارات البلجيك والمهدية فى فترة ١٨٩٤/ ١٨٩٥ م .

ومرة أخرى نتساءل لماذا رحل جيش الختيم مـوسى لدارفـور مـن غير ان يترك ادارة للمهدية وسرية تقوم بحماية الديار التى افتتحوها مرتين واخلوها مرتين فى مدى عشر سنوات بين ١٨٨٥/ و ١٨٩٥ م .

الفصل الخامس

حكومات اجنبية إبان المهدية

حكومات اجنبية إبان المهدية

الغزو البلجيكى :

بعد ان استعمرت القوات البلجيكية اقـاليم الكنغـو فى عام ١٨٩١ وتركزت هناك عسكريا وضعت خطة التوسـع الاسـتعمارى الى الشـمال فى داخـل السودان . وعبرت فصـائل القـوات البلجيكية منطقـة امبومـو «MBOMO» شمالا كجزء من الخطة ووضع قواد البلجيك سياسة استرضاء واسـتقطاب مختلف سلاطين المناطق الزاندية فى جنوب غرب السودان على اساس دعمهم فى مراكزهم القبلية بسلطاتها واستعمار البلاد على القمة .[١]

وكان المنتظر من مثل هـذه السـياسة التى تحمـل فى طياتهـا اغراءات للسلاطين وبخاصة صغار السلاطين الزاندى وغيرها لما فيها من حماية لهـم ولكن الذى حدث هو ان تلك السياسة لم تنجح فى نهاية المطاف .

اسـتطاع البلجيكيون فى عام ١٨٩٢ ان يحصـلوا على اتفـاقيات تحـالف وتعاقد فى منطقة امبومو مع اكبر اثنين من السلاطين هما السـلطان رفـاى والسلطان زيموى واغدق عليهم البلجيك بالسلاح والمعدات . وعمل السـلطان رفاى كوسيط أو سفير بين البلجييك وسلاطين القبائل فى الغـرب مـن بحـر الغزال ونجح فى الظفر بحلف زعيم واسع النفوذ وقوى الشكيمة هو السلطان بنداس سلطان قبيلة (كريش) كمـا نجـح بنداس بدوره فى اقناع سـلاطين قبائل اخرى للدخـول فى الحلف امـلا فى حمـاية البلجيك لهـم . ثم امتد غزو البلجيك الى قبيلة (البندا) فى اقصى الغرب واتفقوا مـع سـلطانها .[٢] وبذلك يكون الغزو البلجيكى قد تغلغل فى اقصى زاوية لمديرية بحر الغزال فى الشـمال الغربى . ومن ثم اراد البلجيكيون رفع اعلامهم فى الغرب المباشر لبحر الغزال وكان سلطان (الفروقى) الفكى احمـد مـوسى وسـلطان قبيلة (القـولقية) واسمه حجر قد حنجرا وضاق ذرعا من غارات سرايا المهدية وفكر بالتضامن فى وجوب حماية البلجيك لهما مما سهل مهمة التفاهم ليدخـل منطقـة راجـا البلجيكيون وفـكروا فى ارسـال سرايا عسـكريا للمنطقتين ولكن قـامت عقبات . . . منها ان البلجيك ارسلوا جانبا مـن جنود السـلطان (زيمـوى)

---

(١) ارض وراء الانهار — روبن كولن

(٢) سانت اندريا

وبينه وبين السلطان حجـر عداوة قبلية تقليدية لا تقبل التسـويات فسحب القائد البلجيكي جنود (رزيموى) وسـار فـأسس مـركزين احـدهما فى بلدة (فيفى) التى كانت مركز قيادة فى الحكم التركى للجنرال جيسى باشا وتقع على بعد أميال الى الشرق من (خو شمام) والمركز الثانى على نهر (بورو)

ومع ان المركزين كانا يجدان الحماية من السلاطين أحمـد الفـكى موسى وحجر الا أن مؤمرات التمرد قد بدأت من الوطنيين فى غرب راجـا وشرقها ومن منطقة ديم زبير وصار الامـر غير مسـتتب ولم تسـتطع الحـاميات البلجيكية مغادرة تحصيناتها .

وفى حوالى نهـاية ١٨٩٤ تسـامع الناس بان جيش المهـدية بقيادة الامير الختيم موسى قد عبر بحر العرب فى طريقه الى غرب بحـر الغـزال وكان كثير من قبيلة الفروقى والكريش يميلون لنصرة المهدية فاكفهر الجـو على السرايا البلجيكية وسلاطين القبائل لان المهدية لا تعترف بنظام السلاطين .

ولكن حدثت فى نفس الوقت مفاجاة غير متوقعة وباسباب سياسية محضة ذلك ان حكومتى فرنسا وبلجيكا قـد وقعتا اتفـاقا فى اوربا يقضى بأن يتم جـلاء الحاميات البلجيكية عن أراضى السودان الى حدود منطقة (امبورو) ، وتركها جميعا للفرنسيين ولذلك اسرعت السرايا البلجيكية بمغادرة غرب بحر الغزال من كل المراكز التى اسستها .

هذا ويجب ان ننكر بان بلجيكا لم تستطع اخضاع سلطان الزاندى الجبار (يامبيو) الذى قاومهم وردهم مرارا على اعقـابهم رغم كل الاغراءات التى ضاعفوها له وسيجد القارىء سيرة السلطان يامبيو كاملة مع قوات الحـكم الثنائى فى فصل آخر من هذا الكتاب كما سـيجد تفصـيلا لقصـة السـلطان طمبرة مع الحكم التركى والمهدية والحكم الثنائى .

الغزو الفرنسى

نكرنا فيما كتبنا عن الغزو البلجيكى ان اتفاقية تمت فى اوروبا عام ١٨٩٤ بين فرنسا وبلجيكا على ان تنسحب القوات البلجيكية التى احتلت منـاطـق فى بحر الغزال الى الكنغو تاركة مراكزها للغزو الفرنسى الذى خطط لجعل بحـر الغزال امتدادا لمستعمرتها « افريقيا الوسطى » .

والحقيقة ان بحر الغزال بعد هزيمة الحكم التركى المصرى فيها على يد الامير كرم كركساوى قائد القوات المهدية واسره لحاكمها البريطانى (لبتن بك) ـ قد عاشت فى فراغ كامل بعد انسحاب الامير كركساوى بأمر من الخليفة عبد الله عقب وفاة الامام المهدى مباشرة فى يونية ١٨٨٥ م .

وعادت القبائل الى حكم سلاطينها والى النزاع بين بعضها البعض فصارت بذلك مكشوفة للاستعمار الاوربى الفرنسى والبلجيكى يحتلون ماشاءوا من المناطق بتوافق انفرادى مع السلاطين وباستعداء بعضهم على بعض . ولهذا فان فترة المهدية بين سقوط الخرطوم عام ١٨٨٥ م وسقوط ام درمان فى عام ١٨٩٨ م كانت فترة متاعب وعدم استقرار ولبحر الغزال التى تجاذبتها الايدى الاستعمارية وضاع بسبب ذلك كثير من المواطنين كضحايا لطمع الغزاة وطموح السلاطين فى مختلف القبائل والمناطق .

تحرك الفرنسيون من حدود افريقيا الوسطى فاحتلوا المناطق الواقعة شمال منطقة (امبومو) من مناطق الزاندى ثم زحفوا شمالا ببطء وحذر ريثما يقيمون حكما فى الاماكن التى احتلوها ولكن حكمهم قد اتسم فى عمومه بالفشل . ولكن الحكومة الفرنسية فى عاصمتها باريس قد وضعت خطة غزو شامل لبحر الغزال ومنه الى الشمال الشرقى نحو النيل الكبير وقد اسند تنفيذ وقيادة تلك الخطة العسكرية الى ضابط شاب هو الكولونيل مارشاند الذى خلد نفسه فى تاريخ السودان بحادث (فشودة) المعروف مع اللورد كتشنر عقب موقعة كررى فى سبتمبر ١٨٩٨ .[1]

وبدأ مارشاند بتاسيس حامية عسكرية فى (طمبرة) فى اواخر ١٨٩٧ م . ثم تحرك نحو واو فاسس فيها حامية وطابية لازالت أثارها موجودة حتى الان ـ بالقرب من المديرية واسمها (طابية ديسكس) (FORT DESAIX)[2] ومن واو تحرك بالسرايا الفرنسية الغازية الى التونج وامقولو وشاكشاك فى الدينكا فى ١٨٩٨ م . ومن هناك تحرك الغزو الفرنسى نحو النيل حتى حط رحاله فى سبتمبر فى شاطىء فشودا شمال غرب ملكال ورفع الاعلام كدلالة للاحتلال ولكن حدث ان دخل جيش الحكم الثنائى للسودان من شماله فاتحا وبعد هزيمة جيوش المهدية تحرك لورد كتشنر الى حيث وصل الكولونيل

---

(١) مصر والسودان ـ الدكتور احمد فؤاد شكرى

(٢) سانت اندريا

مارشاند الفرنسي في أعالي النيل وبعد مفاوضة استكملت في اوروبا بين بريطانيا وفرنسا تم انسحاب الكولونيل مارشاند شرقا الى اثيوبيا عن طريق نهر السوباط . وكنتيجة لتلك المفاوضات التي مثلت بريطانيا في اثنائها دور المدافع عن حقوق مصر في السودان الذي احتلته ثورة المهدية لفترة مؤقتة تعتبر فترة اضطرابات وخروج على القانون على حد قول الانجليز والمصريين ـ كنتيجة لتلك المفاوضات انسحبت كل الحاميات الفرنسية من طمبرة وواو والتونج وغيرها مثل ما انسحب مارشاند من فاشودة .(١)

والواقع ان احتلال الفرنسيين لم يقتصر على جنوب ووسط بحر الغزال بل ان القوات الفرنسية توغلت في غرب بحر الغزال حتى وصلت (راجا) ووضعت كل البلاد الواقعة على تلك الاقليم الممتد طويلا نحو الغرب تحت سيطرتها ونفوذها وقد سلم بالولاء كل سلاطين الفروقية والكريش وغيرهم ولكن النفوذ الفرنسي بين توغله وانسحابه بعد الفتح الانجليزي المصري لم تزد مدته عن اربع سنوات ولكنها تركت بصماتها في اهل بحر الغزال لمدة طويلة .

السنوسي :

هذا الاسم لا علاقة له بالاسرة السنوسية في شمال افريقيا وانما هو اسم لمغامر يحتمل ان يكون من البرنو أسمه الاصلي احمد ابكر من منطقة افريقيا الوسطى وكان قد تعاون مع رابح الزبير الذي كان يعتبر اهم قواد الزبير باشا رحمة ثم ابنه سليمان الزبير ولكنه اختلف مع سليمان قبل معركته مع جيسي باشا وغادر ديم زبير بمن تبعه من رجال سليمان الزبير المحليين واتجه غربا بحفرة النحاس وكفياكنجي وتبعه كثيرون في غزوه لغرب افريقيا وكون في افريقيا دولة وسلطنة وتوسع فاقتحم شاد واصطدم هناك بجيوش فرنسا الغازية في مواقع حاسمة وقتل اخيرا في فورت لامي وانهارت سلطنته بعد ان غطت منطقة واسعة صارت كلها بعد مقتله تحت النفوذ الفرنسي .

واحمد ابكر هذا أو (السنوسي) بالرغم من انه خضع فعلا لسيطرة رابح الزبير الا انه ابتعد عنه بعيدا نحو الشرق وكون له سيطرة ونفوذا في « دار كوتي » ودار « بندا » وتوغل في غرب بحر الغزال بالرغم من مقاومة بعض القبائل الصغيرة لمسيرته . ولكنه في معركة مع سرية فرنسية استطاع ان يقتل القاضي (كرامبل) الفرنسي ويدحر قوته ويتسلح من عتادها وما غنمه من اسلحة حديثة وذخيرة .

---

(١) مصر والسودان ـ دكتور احمد فؤاد شكري

الفصل السادس

بحر الغزال وازمة فاشودة

بحر الغزال وازمة فاشودة

حادث فاشودة وهو احتلال الجيش الفرنسي لفاشودة عاصمة اعالى النيل السابقة بعد احتلال بحر الغزال ، امر معروف للقراء بصورة عامة لانه مرتبط بانتصار الحكم الثنائي على جيش المهدية في كررى وباللورد كتشنر الذى واجه الحادث بالاسلوب العسكرى والسياسى الدبلوماسى .

واهمية الحادث بالنسبة لهذا الكتاب هى أن احتلال الفرنسيين لفاشودة ومنطقة الشلك غرب النيل قد كان امتدادا لاحتلالهم لمديرية بحر الغزال وسيرد في التفاصيل العسكرية والسياسية مما سنذكره هنا كثير مما كنا نحتاج لمعرفته من معلومات لا اظن خاصة السودانيين يعرفون عنها شيئا كثيرا ناهيك عن عاصمتهم .

وكما رجعنا في قضية « حاجز اللادو » الى كتاب « مصر والسودان » للدكتور محمد فؤاد شكرى كمصدر ذى وثائق هامة في الموضوع ـ فاننا نعود الى نفس المصدر الذى طرح كل تفاصيل ودقائق الاحتلال الفرنسي وحادث فاشودة لننشر هنا القصة الكاملة كتاريخ هام لبحر الغزال في مرحلة صغيرة من مراحل تاريخ تلك المنطقة :

قال الدكتور / محمد فؤاد شكرى في الصفحة ٤٦٨ من كتابه : ـ « غادر كتشنر الخرطوم في العاشر من سبتمبر ١٨٩٨ بطريق النيل الابيض فوصل الى خارج فشودة في ٢١ سبتمبر ووجد ان الكولونيل مارشان قد سبقه الى احتلالها منذ العاشر من يوليو ورفع العلم الفرنسي عليها وفي ٢٢ سبتمبر رفع كتشنر العلم المصرى على سارية تبعد نحو مائتى ياردة عن العلم الفرنسي الى الشمال ثم بدأت الازمة بين انجلترا وفرنسا وهى ما يسمى « ازمة حادث فشودة » التى نالت شهرة واسعة في ذلك الحين ولا تزال لها اهمية في تاريخ استرجاع السودان » .

« واهمية حادث فشودة تنحصر اولا في انه كان احد مظاهر المنافسة الشديدة انذاك بين انجلترا وفرنسا على استعمار افريقيا وعلى تأسيس مناطق النفوذ في حوض النيل الاعلى على حساب حكومة الدراويش « يعنى

المهدية ، او على أنقاض تلك الحكومة بعد زوالهـا . وهـى كذلك مـظهر من مظاهر النزاع الفرنسي الانجليزى فى المسالة المصرية عندما عارضت فـرنسا احتلال بريطانيا لمصر وارادت من ارسال « مارشان » الى النيل عند فشـودة اثارة المسالة المصرية والضغط على بريطانيا بالدرجـة التى تجعلهـا تقـرر انهاء الاحتلال والجلاء عن مصر ».

« ووجه الاهمية الثانى لحادث فشودة هـو ان الاصـطدام الذى وقـع بين الانجليز والفرنسيين بسبب ذلك الحادث اثار على نطاق واسع مسالة حقـوق السيادة للفصل اولا فيما اذا كان الخليفة عبد الله قد انشأ دولة لها كل حقوق السيادة على الأراضى الداخلة فى نطاقها . وعلى فرض ان الامر كذلك ـ فيمـا اذا كانت بعض هذه الاراضى قد بقيت ضمن املاكه اوانها خرجت من حوزته فعلا وبذلك صارت ارضا لا يملكها احد او ملكا مباحا ».

« ثانيا : للفصل فيما اذا كانت نظرية الملك المباح هـذه انمـا تطبق على كل السودان بما فى ذلك الاقاليم مـوضع النزاع فى حـوض النيل الاعلى وبحـر الغزال . على اعتبار ان دولة ما لم ينشئها المهديون اطلاقا ولا وجود فى عرف القانون الدولى لكيان خاص بهم وان السودان قد صار ملكا مباحا بمجرد ان اخلاه المصريون وانتهت حكومتهم فيه ففقدوا بذلك حقوق السيادة التى لهـم على تلك الاقطار ».

« ثالثا : أو فيما اذا كان لايمكن بتاتا اعتبار السودان ملكا مباحا . او ارضا متروكة لان المهدية حركة ثورية اغتصبت السلطة مـن الحـكومة الشرعية فى البلاد . وان اتفاقا ما لم يحصل بين الحكومة المنسـحبة « مصر » وبين الثورة المهدية بعد نجاحها مما يثبت معنى الاعتراف بها ويضـفى عليهـا الصـبغة الشرعية . وان كل الأثر الذى ترتب على اخلاء المصريين للسودان ان حقوقهم فى السيادة عليه قد صارت معطلة معه فقط ولا مانع من استئناف ممـارستها « تلقائيا » بمجرد زوال الاسباب المعطلة لها . وهى فى هذه الحالة زوال المهدية وانهاء حكم الخليفة للسودان . »

« رابعا : واخيرا فيما اذا كانت مصر قد عادت فقـط تمـارس حقـوقا فى السياده على السودان بسـبب اسـترجاعها لهـذه البلاد نتيجـة للعمليات العسكرية التى انتهت بالفتح الجديد ومعنى هذا ان السيادة التى كانت لمصر

على السودان قد انتهت بالفعل بمجرد اخلائها له سـواء اعتبرنا ان المهدية اقامت دولة في السودان ام ان السودان صار ملكا مباحا . واستنادا على حق الفتح هذا يحق لبريطانيا الان وهي التي ساهمت بالمال والرجال في استرجاع السودان ان تمارس هي الاخرى بالاشتراك مـع مصر . « أو بتعبير ادق مـع الباب العالي صاحب السيادة الشرعية على مصر ، حقـوقا في السـيادة على السودان » « تلك كانت المسائل التي اثارها حادث فاشودة وهي مسائل سوف تتضح من دراسة تفاصيل الحادث نفسه . »

« لقد بدات فرنسا ووزير خارجيتها (هانوتو) في غضون ١٨٩٤م و ١٨٩٥ بان رفضت فكرة او نظـرية (الملك المباح) واكدت ان حقـوق السـيادة التي للخديوى ولسلطان تركيا لازالت قائمة بالرغم من اخلاء السودان وعلى هـذا الاساس عارضت فرنسا المعاهدة الانجليزية الكونغـولية التي عقـدت في ١٢ مايو ١٨٩٤ م وعلى هذا الأساس ايضا ظلت فرنسا معترفة بحقوق الخديوى والباب العالي على السيادة عندما قـررت في نوفمبر ١٨٩٤ م بعثة «ليوتار» . وقال « هانوتو » في خطاب له امام مجلس الشيوخ الفرنسي في ٥ ابريل ١٨٩٥ في معرض الحديث عن اعتراض انجلترا على توغل الفرنسيين في بحر الغزال ومحاولتهم الوصول الى النيل الاعلى قال ـ (عندما يحين الوقت للفصـل في مصير هذه الاراضي البعيدة نهائيا اعتقد انه بينما نحصل على احترام حقوق السلطان والخديوى وبينما نحتفظ لكل انسان بما يخصه حسب الاعمال التي قام بها تستطيع أمتان عظيمتان مثل فـرنسا وانجلترا العثور على الصـيغة المناسبة التي يتم بها التوفيق بين مصالحهما . » « ولكن في السنوات التي تلت ١٨٩٥ م ، لم تلبث ان تغيرت السـيادة الفـرنسية تغيرا كبيرا عندمـا شـهد الفـرنسيون ان الانجليز يتوغلون في اراضي أوغندا وانيورو ويعقـدون المعاهدات مع البلجيك كما حدث في معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ م . بتأجير حاجز اللادو لولاية الكونغو الحرة ومع الطليان الذين احتلوا كسلا في يوليو ١٨٩٤ م ثم قرروا ارسال حملة غزو دنقلا لمحاولة الوصول للنيل الاعلى مـن الشـمال بدلا من الزحف اليه من أوغندا حسبما كان يتوقع الفـرنسيون ودل ذلك على ان الانجليز يعتبرون السودان ملكا مباحا لا حقوق لاحـد في السـيادة عليه . وتارة يتمسكون بحقوق السـيادة لمصر وتركيا عليه ليخـدموا مصـالحهم في الحالين وليعطلوا المصالح الفرنسية . ولذلك قر راى فرنسا على ان يكون لها

نصيب فى اقتسام الاملاك التى اخلاها المصريون فى السـودان . وعلى ضـوء تلك الاعتبارات صدرت التعليمـات النهـائية فى ٢٤ فبراير ١٨٩٤ للكولونيل (مارشان) » وعندما نشبت ازمة ١٨٩٨ م استند الفـرنسيون فى رفـع العلم الفرنسى على فشودة على نظرية « الملك المباح » (وكان هـانوتو) نفسـه يؤيد تلك النظرية على ان اعتبار السودان « ملكا مباحا » يبيح لفرنسا ان تقتطـع لنفسها ما تشاء من اقاليمه . وكان هـذا مـن اسـباب ارســال الكولونيل (مارشان) لغزو بحـر الغـزال واعالى النيل وكان نجـاح (مـارشان) فى الوصول الى النيل « فاشودة » قبل الانجليز يرجى منه ان يكون سببا لمراجعة فرنسا للانجليز بشأن احتلال مصر . »

« تلك اذا كانت الاعتبارات التى تفسر نشـاط (ليوتار) الفـرنسى حـاكم الاوبانجى العليا الذى عاد من اجازته فى باريس الى الاوبانجى بعـد بضـعة شهور ليبدأ نشـاطه فـاحتل (زميو) فى ١٠ يوليو ١٨٩٥ م واكتسـب ثقـة الاهـالى وشرع يتوغل صوب بحر الغزال حتى وصـل طمبرة فى فبراير ١٨٩٦ وعقد معاهدة مع سلطانها ثم اتجه الى ديم زبير ليفتح طريقا الى بحر العرب وبذلك يكون (لوتار) قد تجاوز حوض الكونغو ودخل الاقاليم المصرية فى بحر الغزال . »

« وتلك الاعتبارات تفسر ايضا نشاط (مارشان) الذى غادر فرنسا فى ٢٥ يونيو ١٨٩٦ م الى الكنغو الفرنسية فوصل الى لوانجـو فى ٢٢ يوليو وقصـد الى برازافيل على نهر الكنغو وتتبع مجرى النهر فى مسيرة شاقة حتى وصل مريضا الى (لوبيما) فى ٢٥ سبتمبر وهى تبعد بمسافة خمسين كيلومترا عن برازافيل ثم غادرها فى اول مارس فوصل الى (بنجـوى) فى أول ابريل وكان ينتظره هناك مندوب من (ليوتار) وفى ٣ اغسطس ١٨٩٧ م وصلت البعثة الى (زميو) وكان (ليوتار) قد فتح طـريقين احـدهما الى الشرق وهـو طـريق (زميو ـ طبره) والاخر الى الشمال وهو يقود الى (ديم زبير) التى احتلهـا (ليوتار) فى ابريل ١٨٩٧ م . ولذلك كان على مارشان ان يختار احـد هـذين الطريقين فاختار بمشورة (ليوتار) طـريق (زميو) وفى ٨ اغسـطس اعتلى (ام بومو) احد نهيرات الاوبانجى من فروع روافد نهر الكونغـو ويمـر على اقليم بحر الغزال فوصل الى (ادا) فى ١٢ سبتمبر واسست البعثة او الحملة ثلاث محطات او مراكز فى كودجالى والشلالات ومحطة فورت ديسكس وهـو

اسم لمدينة (واو) عاصمة بحر الغزال الآن . واسست البعثة خلال الشهور الاخيرة من عام ١٨٩٧ م . عدة محطات فى المنطقة باسرهـا . فى ديابرى واوم بيا واباك ورمبيك (عاصمة البحيرات الآن) وجور غطاس (وهى التونج) ومشرع الريك . وفى ٤ يونيه ١٨٩٨ غادر مارشان فورت ديسكى (واو) حتى يدخل النيل نفسه فى ٤ يوليه وفى ١٠ يوليه ١٨٩٨ وصل فشودة ورفع اعلامه عليها . »

واستطرد البحث بعد وصول الحملة الفرنسية الى النيل فى فشودة يقول :

« وكان (مارشان) عند وصوله الى فشودة يتوقع ان يجد فى انتظارة البعثة الفرنسية الزاحفة من الشرق مع الاحباش ولكنه لم يجدها فبعث باحد اعوانه (باريتيه) على الباخرة (فيدهيب) على نهر سوباط حتى وصل الى نقطة تبعد نحو ٢٠٠ كيلو من (الناصر) وعلم بوصول الضابط الفرنسى (فافر) والكولونيل الروسى (ارتمانوف) مع جيش الاحباش بقيادة (الدجاج تاما) الى ملتقى سوباط بالنيل فى ٢٢ يونيو ١٨٩٨ م وعاد (براتيبه) الى فشودة فى ١٤ سبتمبر . »

وقبل عودة (باراتيه) بتلك الانباء المزعجة كان (مارشان) قد اشتبك فى قتال مع الدراويش (يعنى الانصار) فى ٢٥ اغسطس ١٨٩٨ م ارتد الدراويش (الانصار) بعدها الى منطقة الرنك وكان الخبر قد وصل للخليفة عبد الله بان جيشا من الغزاة البيض جاء من الجنوب فاحتل فشودة فارسل سرية من الانصار على باخرتين واحد عشر مركبا شراعيا بقيادة سعيد صغير الجعلى لطردهم منها . ووصلت السرية يوم ٢٥ اغسطس الى الشرق من فشودة ووجدوا الفرنسيين متحصنين فى طابيتين وتبادلوا اطلاق النار ولكن الانصار لم يقووا عليهم فارتدوا بطريق الشرق الى الرنك وارسل امير الانصار احد الوابورين لاحضار المدد من ام درمان ولكنه وصل يوم ٩ سبتمبر اى بعد اسبوع من فتح السودان بموقعة كررى يوم ٣ سبتمبر . وعلم (هربرت كتشنر) من الانصار بقصة فاشودة فقرر الزحف فورا الى الجنوب فى صباح ١٠ سبتمبر . »

« وكان السردار كتشنر يعلم من الاشاعات التى بلغته لدى وصوله بربر فى ابريل ١٨٩٨ان الفرنسيين موجودون فى بحر الغزال وان الاحباش وصلوا

(بنى شنقول) على النيل الازرق وكان من المحتمل ان يصل الفرنسيون في زحفهم الى النيل وان يزحف الاحباش على النيل الازرق منتهزين بذلك مشغولية الخليفة عبد الله في مقاومة الزحف المصرى الانجليزى من الشمال لاحتلال المناطق التي يريدها الفرنسيون والاحباش في السودان».

«فكان حينئذ ان اقترح اللورد كرومر على سولبرى وزير خارجية بريطانيا لدفع ذلك الخطر المزدوج في مذكرة بتاريخ ١٥ يونيه ١٨٩٨ م ان تسير حملتان احداهما للنيل الابيض بقيادة السردار كتشنر والاخرى الى النيل الازرق وعلى أن يقتصر عمل الحملتين على موقف الدفاع فقط اذا التقتا مع الفرنسيين أو الاحباش وان تمتنع الحملتان عن اى عمل من شأنه الاستفزاز. اما اذا رفع الفرنسيون العلم على النيل الابيض فيجب على قائد الحملة ان يحتج على وجود القوات الفرنسية وان يطالب باسترداد الاراضى المحتلة. واشار (كرومر) في مذكرته تلك لمسألة السيادة عندما تساءل ـ باسم من تكون هذه المطالبة؟ باسم الحكومة البريطانية ام باسم الخديوى ام بالاثنين معا؟ واكد كرومر ضرورة أن تكون لدى قائد الحملة تعليمات محددة وقاطعة في هذه المسألة لاهميتها.».

«ولأن وزير الخارجية الفرنسية الجديد (دلكاس) كان معروفا بقوة الشكيمة ويرجو مواطنيه المعادين للانجليز ان تثار المسألة المصرية بنشاط كبير في عهده ـ فقد توقع الانجليز ان يحاول الفرنسيون اذا نجح (مارشان) في الوصول الى النيل قبل وصول كتشنر اليها التمسك بتلك الاراضى التى رفعوا عليها العلم الفرنسى على اساس حق الفتح وبدعوى ان تلك الاراضى حق مباح بعد ان أخلاها المصريون».

«ولهذا فقد اتخذت انجلترا من مذكرة اللورد كرومر اساسا للتعليمات التى اصدرتها الى كتشنر في السودان في ٢ أغسطس ١٨٩٨ وقد طلبت التعليمات من كتشنر ان يمتنع عن قول او فعل شيء يفيد أو يتضمن بحال من الاحوال اعترافا صدر من حكومته بحق امتلاك فرنسا او الحبشة لاى جزء من حوض النيل الابيض او الازرق.».

تشبث بريطانيا بحقها المزعوم

« وفى الرسالة التى حملت هذه التعليمات وبعث بهـا لورد سـولسبرى الى كرومر فى ٢ اغسطس قال لورد سولسبرى ان الحكومة الانجليزية قد وضحت خصوصا لفرنسا فى مذكرتها التى أبلغها السيد ادمـون مـونون سـفيرها فى باريس الى المسيو هانوتو وزير الخارجية الفرنسية فى ١٠ ديسـمبر ١٨٩٧ وقد جاءفيها : (انه لا يجب ان يفهم انسـان عن الحـكومة الانجليزية انهـا تعترف بان لأى دولة اوربية غير بريطانيا حقا فى امتلاك اى جزء من اجـزاء وادى النيل . وآراء الحكومة قد وضحها فى البرلمان السير ادوارد جراى مـن بضع سنوات ابان وزارة (اللورد روزبرى) وقـد ابلغـت رسـميا للحـكومة الفرنسية آنذاك وحكومة جلالة الملكة (فكتوريا) متمسكة بالاقوال التى ادلت بها فى هذه المناسبة الحكومات السابقة) » .

« اما آراء الحكومة الانجليزية التى اشارت اليها المذكرات فمـوضوعها ان السير ادوارد جراى وكيل وزارة الخارجية البرلمانى كان قد اجاب على سؤال فى ٢٨ مارس ١٨٩٥ بمناسبة نشاط الفـرنسيين الاسـتعمارى ومحـاولتهم الوصول الى النيل وذلك اثناء المناقشة التى قلنا انها اثيرت يوم ١١ مـارس بمناسبة بعثة (ليونار) الفرنسى تعليقا على الاشاعات التى راجت وقتئذ عن ان تعليمات قد صدرت لبعثة فرنسية بالدخول فى وادى النيل فقد ذكر جـراى ان ليس لدى الحكومة الانجليزية ما يحملها على افتراض ان هذه الاشـاعات واجبة التصديق . ثم مضى يقول « بل وانى سوف اذهب الى ابعد لاقول انه بعد كل تلك التوضيحات التى ادليت بها بصدد الحقـوق التى تعتبر انهـا لازالت لمصر فى وادى النيل . ومع اضافة الحقيقـة التالية وهـى ان حقـوقنا وآراء الحكومة بشأنها معروفة تماما وبوضـوح للحـكومة الفـرنسية اقـول اننى لا اعتقد انه ممكن ان تكون هذه الشائعات أهلا لتصديقها لأن زحفا تقوم به حملة فرنسية بناء على تعليمات سرية من ذلك الجانب الآخـر مـن افـريقيا لا يكون عملا شاذا وغير متوقع فحسب بل هو عمل غير ودى » .

« ولهذا طلبت التعليمات من اللورد كتشنر فى السودان ان يحاول اقناع قائد الحملة الفرنسية (مارشان) عندما يقابله لان وجوده فى وادى النيل انما هـو اعتداء على حقوق بريطانيا العظمى والخديوى معا . اما إذا حصـل اتصـال

واحتكاك مع البلجيكيين في منطقة حاجز اللادو فالواجب عليه (اى كتشنر) ابلاغهم بانه بمقتضى اتفاق ١٢ مايو ١٨٩٤ م ليس لهم حق في امتلاك الاراضي امتلاكا كليا ودائما ولكن ليس لبريطانيا بموجب نفس هذا الاتفاق ان تتدخل في استئجارهم مؤقتا لبعض الاراضى المعينة في هذه المنطقة » .

هكذا كان واضحا ان الحكومة البريطانية متشبثة بان لبريطانيا ومصر معا حقوقا دائمة في السودان اما بحق الفتح فيما يخص بريطانيا واما بموجب ما كان لمصر من حقوق السيادة التى كانت تعتبر مصر محتفظة بها رغم قيام الثورة المهدية ولكنها معطلة فقط بالتمرد السودانى على السلطة ثم لم تلبث - اى مصر - ان استردتها بعد زوال المهدية تلقائيا . وتارة اخرى تقول بريطانيا ان مصر قد فقدت فعلا تلك السيادة باندحارها امام الثورة المهدية وإخلائها للسودان كله ثم استعادتها بحق الفتح المشترك مع بريطانيا في حملة كتشنر . كل ذلك لان بريطانيا تتشبث بحقوق لها في فتح السودان ولا يهمها ان حقوق مصر على السودان تمتد عبر فترة المهدية ولكن يهمها ان فرنسا لا تحتل بحر الغزال ولا اى جزء من وادى النيل .

وكان تشبث الانجليز بحقهم في السودان واضحا لفرنسا بانه لا نكوص عنه اطلاقا وقد خشى (دلكاس) وزير خارجية فرنسا بعد ان حققت القيادة الانجليزية انتصارها على جيش الخليفة عبد الله في كررى - خشى ان زحف اللورد كتشنر على اعماق النيل الابيض قد يؤدى عند التقائه مع الكولونيل (مارشان) الى اصطدام لا تحمد عقباه لدى الدولتين انجلترا وفرنسا .

الحلول الدبلوماسية :

« لقد حاول (دلكاسى) في ٧ سبتمبر ١٨٩٨ وهو يهنىء السفير الانجليزى في باريس السير ادموند مونسون على انتصار كتشنر - حاول ان يبين له وجهة النظر الفرنسية بأن (مارشان) رسول مهمة للتمدن وانه مزود بتعليمات تمنعه من خلق متاعب محلية تنشأ من خلاف على مسألة (الحقوق) ولذلك فإن اى خلاف ينشأ على موضوع (الحقوق)تجب احالته على الحكومتين هنا في باريس ولندن للنظر في امره . ثم اعرب (ديلكاسى) عن رغبته في ان تصدر الحكومة الانجليزية تعليمات مشابهة لقائد حملتها الزاحفة للجنوب منعا

لوقوع اى اصطدام بين الحملتين الانجليزية والفرنسية هناك ، وقد كان تعليق (مونسون) على موقف الحكومة الفرنسية عندما نقل هذه المقترحات الى حكومته فى ٨ سبتمبر ١٨٩٨ هو: (ان الامة الفرنسية وحكومتها تدركان تماما ان اثارة الضجيج حول المسالة المصرية لا ياتى بفائدة . ومع ذلك فان هذا لا يعنى ان الفرنسيين سوف لا يثيرون زوبعة ضد الاحتلال البريطانى فى مصر سواء فى البرلمان الفرنسى او فى صحافتهم » .

وثم استطرد مونسون يقول : ولكن فى حين ان الفرنسيين يحاولون – وهذا طبيعى اقامة الحجة منطقيا على ان الاحتلال يجب ان ينتهى من مصر فهم يدركون تماما كذلك ان العمليات الاخيرة قد نجم عنها ببساطة ان اشتدت قبضتنا على مصر وانه من المتعذر ان يتمثل المنطق الفرنسى التطبيق العملى » .

« وفى جوابه على رسالة (مونسون) هذه كتب اللورد سالسبورى فى ٩ سبتمبر يقول (المبدأ الذى تريد الحكومة البريطانية ان تستند عليه الحقوق التى صارت لبريطانيا ولمصر فى السيادة على المناطق موضوع النزاع الظاهر بينها وبين الحكومة الفرنسية وهو المبدأ الذى ينسحب تطبيقه بطبيعة الحال على كل اقاليم السودان التى امتلكتها مصر اصلا . وطلب (سالسبورى) اذا عاود (ديلكاسى) الكلام فى هذه المسالة ان يبين له السفير الانجليزى انه بعد الحوادث العسكرية التى حدثت فى الاسبوع المنصرم اصبحت كل الاراضى التى كانت خاضعة للخليفة عبد الله ملكا للحكومة الانجليزية والمصرية بحق الفتح . وان الحكومة الانجليزية ترى ان هذا الحق لا يقبل المناقشة ولكنها مستعدة لان تحل سائر المشاكل المتعلقة بالاراضى التى لا تتاثر بهذا التوكيد حلا وديا يبحث فيه الفريقان بتمام الحرية كما يروم سعادته » .

وقد لاحظ (ديلكاسى) عندما بلغته ان عبارة (الاراضى التى كانت خاضعة للخليفة) مبهمة . وفى مقابلة اخرى نقل تفاصيلها (ادموند مونسون) الى سوليسبورى فى ١٨ سبتمبر ١٨٩٨م تساءل (ديلكاسى) عما إذا كانت الحكومة الانجليزية لا ترى انه يحق (لمارشان) ان يصل الى النيل وكان من راى (ديلكاسى) ان اقليم بحر الغزال خارج من نفوذ وسلطان الخليفة عبد الله وان فشودة لم تكن محتلة بقوات المهدية عندما احتلها (مارشان) . واعتقد (ديلكاسى) انه ليس من الصعب الوصول الى حل يرضى الجانبين اذا شاءت

الحكومة الانجليزية ان تعالج هذه المسألة بالروح الودية التى تريد فرنسا ان تعالجها بها . ولكن السفير مونسون اكد للوزير الفرنسى ان حكومته تعتبر (فشودة) جزءا من املاك الخليفة عبد الله ولذلك فالحكومة الانجليزية متمسكة بموقفها وترفض اى حل وسط فى هذه المسألة . ثم اختتم مونسون تلك المقابلة بإبداء ملاحظة هى ان الحكومة الانجليزية لا رغبة لها فى اثارة عراك مع فرنسا ولكن بعد كل هذه التحذيرات التى حصلت لا يجب ان تندهش فرنسا اذا غضبت بريطانيا عن اى خطوة فرنسية اخرى تتخذ هناك . »

اللورد كتشنر ومارشان فى فشودة :

وجاء فى بحث الدكتور محمد فؤاد شكرى ما يأتى :

فى ١٨ سبتمبر ١٨٩٨ كان كتشنر قد اقترب بحملته من فشودة وكان مارشان قد علم فى نفس هذا اليوم من احد الشلك باقتراب حملة كتشنر وكان طبيعيا ان تنتقل المشكلة من لندن وباريس الى فشودة ارض النزاع والتأهب للحرب الذى يتوقف كليا على حسن تصرف قائدى الحملتين الانجليزية والفرنسية واعطائهما الفرصة لحكومتى لندن وباريس لحل المشكة بطريق التفاهم والتفاوض السلمى . »

« وفى صباح ١٩ سبتمبر أرسل اللورد كتشنر بخطاب الى الكولونيل مارشان حمله اليه جنديان سودانيان ابلغه فيه انه انتصر على جيش الخليفة عبد الله فى واقعة كررى واسترجع السودان وانه ترك بعد هذا النصر ام درمان قاصدا فشودة على خمس طرادات وقوة انجليزية ومصرية عظيمة وانه فى اثناء مسيرته لقى قوة من الدراويش (يعنى الانصار) فى الرنك وبعد معركة قليلة الاهمية استولى على معسكرهم ووابورهم وأسر أميرهم الذى قال ان الخليفة عبد الله كان قد ارسله الى فشودة لاحضار بعض الغلال وانه قد حدثت بينه وبين رجال من الافرنج معركة فرأى ان يرجع الى الرنك ليطلب من الخليفة عبد الله مددا ليطرد اولئك الاجانب وبينما هو منتظر الرد هاجمه السردار كتشنر من الشمال . »

« واجاب مارشان بخطاب فى نفس اليوم مهنئا لورد كتشنر على انتصاره على الخليفة عبد الله واسترداد السودان وزوال المهدية من وادى النيل . ثم انتقل بعد التهانى الى ابلاغ كتشنر بقوله له (انه بناء على اوامر حكومته قد

احتل بحر الغزال الى مشرع الرنك والى ملتقى بحر الجبل ثم بلاد الشلك غرب النيل الابيض الى فشودة التى دخلها يوم ١٠ يوليه ١٨٩٨ . ثم قص اخبار اشتباك الدراويش معه يوم ٢٥ اغسطس وانتصاره عليهم وهو الانتصار الذى كان من نتيجته (تحرير بلاد الشلك) ومضت رسالة (مارشان) تقول :

« لقد وقعت مع سلطانها (اى بلاد الشلك) عبد الفاضل الملك العظيم معاهدة ٣ سبتمبر وبموجبها وضعت بلاد الشلك غرب النيل الابيض تحت الحماية الفرنسية بشرط التصديق عليها من الحكومة الفرنسية وقد ارسلت المعاهدة اولا بطريق نهر سوباط فالحبشة ثم عن طريق بحر الغزال بمشرع الرنك حيث توجد الباخرة (فيد هيب) المكلفة بنقل الامدادات اللازمة لدعم فشودة خوفا من عودة هجوم الدراويش (الانصار) وكانوا قد اعتزموا الهجوم بقوة تزيد على القوه التى هاجموا بها فى اغسطس لولا ان حضوركم منعهم من ذلك » .

مواجهة شخصية :

« وفى ٢١ سبتمبر ١٨٩٨ وصل اللورد كتشنر الى ظاهر فشودة وارسل يستدعى اليه الكولونيل (مارشان) الفرنسى (لان التقليد العسكرى هو أن يسعى صاحب الرتبة العسكرية الادنى للضابط الاعلى رتبة) . ودارت مناقشة عنيفة فى مواجهة شخصية بين القائدين هدد اثناءها كتشنر باستخدام القوة ثم عاد فتريث لعلمه ان احتكاكا مثل هذا من المحتمل ان يؤدى الى نشوب الحرب بين انجلترا وفرنسا . واخيرا اتفق القائدان على ان لا يفصلا فى شىء حتى يخبر (مارشان) حكومته وفى اليوم الثانى ٢٢ سبتمبر رفع كتشنر العلمين المصرى والانجليزى على فشودة ثم غادرها الى الخرطوم (تاركا قواته هناك) .

« وأسرع كتشنر من الخرطوم فارسل برقيتين تحويان ماحدث فى فشودة عن طريق سفارة بريطانيا فى مصر وكان السفير انذاك يسمى « القنصل العام » .

« وذكر كتشنر فى الرسالة الاولى انه وصل الى (الرنك) وسيفصل ماحدث مع الانصار هناك اما البرقية الثانية فقد اشتملت على تفاصيل المقابلة مع مارشان فى فشودة وقد جاء فيها قوله » :

« انه عند وصولى الى فشودة جاءنى (مارشان) ومعه مسيو (جيرمان) وهو من اعضاء بعثته . وفى باخرتى اخبرتهما ان وجود قوة من الفرنسيين فى فشودة ووادى النيل يعد تعديا على حقوق مصر والحكومة الانجليزية واعترضت على إحتلالهم فشودة ورفعهم للعلم الفرنسى على املاك الخديوى اشد الاعتراض فأجابنى المسيو (مارشان) ان الاوامر التى صدرت اليه صريحة باحتلال هذه البلاد ورفع الراية الفرنسية على دار الحكومة فى فشودة . وقال انه يستحيل عليه الخروج من هذا المكان الا بأوامر من حكومته وهو ينتظر ان لاتبطىء اوامرها وسألته (المتحدث لورد كتشنر) ان كان سيمنع رفع الراية المصرية على فشوده وهو يعلم ان لدى قوة أعظم من قوته . فتردد ثم قال انه لا يستطيع المقاومة فرفعت الراية المصرية على بعد نحو خمسمائة متر من العلم الفرنسى وعلى الطريق الوحيد الذى يوصل الى الداخل من الموقع الفرنسى وهو موقع تحيط به المستنقعات من كل جانب . وقبل سفرى ارسلت كتابا الى مارشان اعترضت فيه اعتراضا رسميا بالنيابة عن حكومتى بريطانيا ومصر على احتلال فرنسا لجزء من وادى النيل لان ذلك يعد تعديا على حقوق الحكومتين وقلت انى لا اعترف باحتلال فرنسا لجزء من وادى النيل وتركت حاميته فى فشودة » وكان متوقعا ان تصل حملة حبشية الى ملتقى سوباط مع النيل عند (خور فلوسى) ولكن كتشنر وصل اليها قبل سفره للخرطوم ووضع بها حامية رمزية ورفع عليها علم مصر وبريطانيا . وقال انه لم يجد اثرا للاحباش وعلم بانهم يبعدون بنحو ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً الى الشرق من الملتقى . وقال فى تقريره ايضا انه وجد النيل به حواجز من الطحالب والعشب السميك فامر مدفعيته ان تسير فى بحر الغزال الى مشرع الرنك وقال انه عند رجوعه مارا بفشودة فى طريقه للخرطوم ارسل خطابا الى مارشان يقول فيه ان نقل المواد الحربية ممنوع لان البلاد هنا تحت الاحكام العرفية .

وجاء (الشلك) وكثيرن من رجاله الى معسكر الميجور جاكسون (جاكسون باشا حاكم د نقلا فيما بعد) وأنكروا انهم قد عقدوا معاهدة مع (مارشان) والفرنسيين باسم القبيلة وقد ابدوا ـ باسم الشلك كل السرور بالرجوع لطاعة الحكم المصرى الانجليزى .

وفي رسائل اللورد كتشنر لحكومته ولمصر قال ان (مارشان) تنقصه الخبرة والمؤونة وما يرسل اليه لا يصله الا بعد شهور وقال ان (مارشان) وفرقته منقطعون عن داخل البلاد وليس له اتباع من المواطنين . وقال ان الجيش الانجليزي المصري لو تاخر عن موقعة كرري لاسبوعين فقط لتمكن الانصار من ابادة فرقة (مارشان) في فشوده .

والواقع ان اللورد كتشنر قد وضع فرقة مارشان الفرنسية تحت الأسر المباشر حين انشا حاميتين إحداهما على الشمال وأخرى على ملتقى سوباط بالنيل ومنع عنه اى إمدادات او طعام باعتبار المنطقة تحت النفوذ الثنائي وتحت قانون الاحكام العرفية ولان المواصلات كانت مائية وليس هناك طرق برية فان مارشان وجد نفسه في مصيدة وبهذا الوضع توتر الموقف في اوربا بين انجلترا وفرنسا لدرجة كان يخشى معها من نشوب الحرب بينهما ولكن فرنسا لم تكن في موقف يقوى على الحرب بما يعود عليها وعلى مستعمراتها في افريقيا بعواقب وخيمة فاذعن وزير خارجيتها للأمر الواقع بالرغم من شعور الفرنسيين الملتهب ضد بريطانيا . وقرر (ديلكاس) الدخول مع بريطانيا في مفاوضات لايجاد حل سلمي . ويقول الدكتور شكرى انه المحتمل ان تكون روسيا حليفة فرنسا قد نصحتها بعدم اثارة الحرب بشأن موضوع فشودة وارسال تعليمات الى مارشان بمغادرة المكان . وكان مارشان قد يئس من وصول التعليمات فغادر فشودة عن طريق نهر سوباط الى الحبشة ثم وصل القاهرة ليجد تعليمات تأمره بالعودة الى فرقته في فشودة للجلاء عنها واخلائها للحكم الثنائي .

وفي باريس تسلم السفير البريطاني رسالة من اللورد سولسبرى رئيس وزارته تقول انه استقبل (البارون دى كورسيل) سفير فرنسا في لندن الذى ابلغه ان حكومته قررت ان تأمر بعثه مارشان بالانسحاب من فشودة وان ترسله ليقوم هو بتنفيذ ذلك الانسحاب فورا .

بريطانيا اتكات على (حقوق مصر)[1] :

والقارىء لن تخفى عليه حقيقة واضحة وهى ان بريطانيا في محاوراتها

---

(١) مصر والسودان ـ دكتور أحمد فؤاد شكرى

ومفاوضاتها مع فرنسا قد اتكأت على موضوع (حقــوق مصر) في السودان لتحقق مأربها في استعمار وادي النيل لتزيل الفجوة بين سيطرتها على أوغندا وسيطرتها على مصر ويكون النيل من منبعه الى مصبه تحت حمــاية ورعاية واستثمار بريطانيا .

وقد رأينا في هذا الفصل نفسه كيف ان بريطانيا قد اعتمدت ذات مــرة على نظرية (الملك الحر) وهي تقول بان الارض كلها كانت ملكا للخليفــة عبد الله وبانتصار المهدية سقطت حقوق مصر ثم عادت بدافع مــن صيانة ومصالح الامبراطورية لترفع شعار حقوق مصر والخديوي في السودان وتعتبر المهدية كلها عبارة عن تمرد مؤقت على السلطة المصرية الخديوية .

صدى القصة في مصر :

اما في مصر فقــد كان طبيعيا ان تثير اصــحف الفــرنسية المحلية والمعادية للاحتلال البريطاني حملة كبيرة ومركزة على الانجليز بسبب حادث فشــودة . وكانت النغمة التي رددتها تلك الصحف هي ان مصر قد تنازلت عن حقوقها في السيادة على السودان عقب نجاح الثورة المهدية .

وقالت صحيفة (لوكوربيه دوريان) كما جــاء في كتاب الدكتور شــكري ان مصر عندما اخلت السودان لم تكن تنوي ان تسترده عسكريا مرة أخرى وان انجلترا لهذا ليس لها حق ان تطالب بانسحاب بعثة مارشان العسكرية مــن فشودة . ومضت الصحيفة تقول ان الفرنسيين محقين في دعواهــم بان مصر قد فقدت حقوقها في السودان بعد اندحارها امام المهدي . ويقول الفــرنسيون ان المطالبة بالانسحاب لو حدث ان جاءت من جانب الخديوي أو سلطان تركيا لكان ممكنا ان يكون ذلك محل بحث واعتبار حيث ان الخديوي وسلطان تركيا لهما الصفة التي تخول التدخل في هذه المسالة والمطالبة بما يريانه حقا لهما .

وهذا يعني ان تلك الصحيفة الفرنسية اعترفــت ضــمنا بان حقــوق مصر وتركيا في عهد ما قبل المهدية لا تزال باقية بالرغم من ان فرنسا نفسها تتحدث في كل اطوار هذا الحوار بشــعار ان الســودان بعــد خــروج المصريين عنه مدحورين على يد المهدية يعتبر (ملكا مباحا) لمن يســتطيع ان يســتولي عليه

وفي ٢٦ اكتوبر ١٨٩٨ م كتبت صحيفة (لوكوربيه دوريان) ايضا تقول ان فرنسا هي الدولة الصديقة التي يجد خديوي مصر منها كل العون وانها الاخت الكبرى لمصر وهاجمت انجلترا التي عبات حملة بنقلا لفتح السودان بدون موافقة الخديوي عباس حلمي الثاني الذي كان في اجازة باروبا عندما زحف اللورد كتشنر نحو السودان من اسوان وبذلك جرده الانجليز من كل سلطاته واهملوا رايه ومشورته وهو الجالس على عرش مصر . وتحمست الصحف الفرنسية فقالت ان احتلال مارشان لفشوده كان فيه تأمين لاستقلال مصر وذريعة لرفع الاحتلال الانجليزي عنها ولا يجب أن ينسحب مارشان من فشودة إلا إذا انسحب الانجليز من مصر نفسها .

وكان من اثر هجوم الفرنسيين على بريطانيا واحتلالها لمصر ما جعل بعض المصريين يعتبرونها ازمة في صالحهم يجب استغلالها لتخليص مصر من قبضة بريطانيا . ومن اولئك الخديوي عباس نفسه الذي كان يكظم غيظا شديدا على الانجليز لتصرفهم في امر مصر والسودان بارسال حملة كتشنر عام ١٨٩٦ للسودان بغير الرجوع اليه بالرغم عن ان الحرب تدار باسمه وتحت علمه المرفرف على الحملة .

ومما زاد الخديوي غيظا على الانجليز انهم بعد فتح السودان في سبتمبر ١٨٩٨ اعلنوا مشاركتهم لمصر في حكمه ورفع كتشنر العلم الانجليزي مع العلم المصري في كل سارية من مرافق الحكومة وكل ذلك بغير اذن الخديوي عباس(١) .

وروى الدكتور شكري في كتابه قصة نسبها الى احمد شفيق باشا الذي كان يصحب الخديوي عباس في اوربا عندما بلغهم زحف كتشنر على السودان بان بعض كبار الفرنسيين قالوا للخديوي ان فرنسا قد اعدت العدة لاحتلال (بحر الغزال) لمساعدة مصر ضد انجلترا وكان هذا القول مريحا لاعصاب الخديوي ولنا جميعا لاننا جميعا نريد جلاء الانجليز عن مصر .

وقد خاب امل الخديوي طبعا عندما تقهقرت فرنسا وانسحب جيشها من فشوده ثم من (واو وكل بحر الغزال) تباعا . ومن الغريب في السياسة المصرية وضعف قبضة الخديوي عليها ان الانجليز قد طلبوا من رئيس

---

(١) مصر والسودان ـ دكتور احمد فؤاد شكري

الوزراء المصرى (مصطفى فهمى باشا) ان يعلن لهم تفويضا مصريا لينوبوا عن مصر فى المفاوضات الجارية بين الانجليز وفرنسا بشأن مصر وفشودة وذلك تناقض وفوضى سياسية لا مزيد عليها وفيه دلالة على أن حكم مصر فى يد انجلترا وحدها .

وكان السبب فى التفويض ان وزير خارجية فرنسا لم يعترف لانجلترا ان تنوب عن مصر فى موضوع حقوقها فى السودان ولهذا اوحى للوزارة المصرية ان ترسل تفويضها لبريطانيا فأرسل بطرس باشا غالى وزير خارجية مصر هذا التفويض للورد كرومر ممثل بريطانيا فى مصر :

(ان حكومة مولاى الخديوى لم تغفل قط امر استرجاع السودان كما تعلمون جنابكم لان السودان مصدر حياة القطر المصرى ولم تنسحب الحكومة المصرية عن تلك البلاد الا مكرهة بحكم الضرورة . فالغاية المقصودة من فتح الخرطوم تضيع فائدتها اذا لم يسترد وادى النيل الذى ضحت لاجله مصر ضحايا عظيمة . ولعلم الحكومة ان بريطانيا العظمى وفرنسا تتفاوضان الآن فى مسألة فشودة فوضت الى ان اكلف جنابكم مساعدتنا لدى (لورد سالسبورى) حتى يعترف لمصر بحقوقها التى تتنازع فيها وترد اليها جميع المديريات التى كانت محتلة لها قبل ثورة المهدى)

من هذا يتضح ان مصر لم تكن لها سياسة مقررة وموحدة لان هوى الخديوى عباس مع فرنسا وضد بريطانيا التى تتجاهله وهوى وزارته فى القاهرة مع الانجليز بل هم كانوا ادوات طيعة فى يد اللورد كرومر ممثل بريطانيا ينفذون له كل ما يريد حتى لو كان ذلك ضد رغبة الخديوى الجالس على العرش المصرى .

وتفويض مصر لبريطانيا لتتحدث باسمها فى المفاوضات لابد ان يكون قد سكب الماء على تحمس فرنسا الملتهب فى مصلحة مصر كما تدعى . اما دفع الانجليز فى المفاوضة بان السودان بكل اجزائه يعتبر ممتلكات مصرية لم تسقط بقيام المهدية باعتبار ان ثورة المهدى غير شرعية بل هو تمرد الى حين ثم تعود الاملاك الى سيادة مصر ـ هذا القول لا يستقيم مع اى منطق كيف يفسرون الثورة المهدية بانها تمرد وهى التى قامت بتصفيه كاملة لسيطرة مصر على السودان فكانت النتيجة استقلال كامل ناله السودان على يد

المهدية منذ اعلان ثورتهـا فى ١٨٨١م الى دخـول جيش الحـكم الثنائى فى ٢ سبتمبر ١٨٩٨م فهل سمعتم بتمرد جزئى كما يدعون لدى ثمانية عشر عامـا حدث فيها تغيير كامل لكل حياة السودان ؟

ولو اقتصر المفاوضون الانجليز على شيء واحد هـو حقيقـة وقعـت وهـو السيادة على السودان بحـق الفتح الانجليزى المصرى الاخير ـ لو اقتصروا على ذلك لكان وحده كفيلا بان يمنحهم الحجة ضد فـرنسا فى مفـاوضاتهم . اما الثورة الوطنية التى حررت البلاد بانهار من الدماء السـودانية والمصرية ونجحت فى نهاية المطاف ـ فلا يصح اعتبارها تمـردا على سـلطة الخـديوى الشرعية ولا ندرى من أين تلك الشرعية المزعومـة التى سـقطت باسـترداد السودانيين لحرياتهم بحد السيف .

واخـــيرا :

كان لابد للنزاع الانجليزى الفرنسى حـول (حـادث فشـودة) ان ينتهـى دبلوماسيا وقد تم ذلك نهـائيا فى ٢١ مـارس ١٨٩٩ بالاتفـاق على اصـدار (تصريح) انجليزى فرنسى يدخل تعديلا مكملا على المادة الرابعة من اتفـاق ١٤ يونيه ١٨٩٨م الخاص بتحديد مناطق النفـوذ بين امـلاك ومسـتعمرات الانجليز والفرنسيين الواقعة الى الغرب والى الشرق من نهر النيجر وقد وقع على ذلك التصريح كل من اللورد سالسبورى عن انجلترا ومسيو بول كامبون السفير الفرنسى فى لندن[١] .

وبمقتضى ذلك التصريح خرج حوض بحر الغزال وبحر العرب كله بما فى ذلك دار فرتيت غرب الغزال ودار فور عن دائرة النفوذ الفرنسى . ومن نظرة شاملة لخريطة افريقيا يتضح ان بريطانيا ومصر قد نالتا كل مـا كانتا تطلبان ابان المفاوضات مع فرنسا . واضطرت القوات الفرنسية التى احتلت بحر الغـزال لفترة فى كثير من اقاليمه الى الانسحاب الى ممتلكاتها فى الغـرب (افـريقيا الوسطى وتشاد) .

---

(١) مصر والسودان ـ دكتور احمد فؤاد شكرى

الفصل السابع

الحكم الثنائى فى بحر الغزال

وكان نهر الجور مسدودا تماما بالاحــراش والبابايرس (قصــب البردى) مما استوجب على الجيش جهدا لا حــدود له لتتمــكن البواخــر الصــغيرة والصنادل المستطيلة من الملاحــة فيه واختيار محــطات مــرتفعة لاقــامة معسكرات عمال للغابات تمد البواخر بالوقود من أخشاب الأشجار فى داخل امتداد الأرض الصلبة .

وباحتلال واو فى أواخر ديسمبر ١٩٠٠ تم الاعتبار الرسمى بأن الحـكومة الانجليزية المصرية[1] قد وضعت يدها على بحر الغزال ولكن هــل هــذا غير صحيح من الناحية العملية ؟ .

كان الدينكا وهم اكبر وأهم قطاع فى بحر الغزال قد عانوا كثيرا من وطـأة العناصر الاجنبية ابتداء من النصف الأول من القــرن الثامــن عشر عندمـا غزاهم تجار الرقيق الاجانب من اوروبيين وأتراك ومصريين ثم تجار الرقيق السودانيين ثم الحكم المصرى التركى ثم حكم المهدية التى مثلها على امـارة بحر الغزال كرم الله كركساوى . ولما وصلتهم طلائع جيوش الحكم الثنائى فى أول هذا القرن قابلوها بجفاء وسلبية تامة امتنعوا بهــا عن تقــديم أى عون للجيش الفاتح وحتى عن اى ترحيب مظهرى ولكنهم لم يقاوموا الفتح لانهــم لم يجمعوا امرهم على ذلك .

ومع ذلك فإن اسباركس بك قائد القوات قد توغل فى دار الدينكا فرفع علمى الحكم الثنائى على سارية أعدت فى معســكر انشىء فى التونج واحتفــل هــو وضباطه بعيد ميلاد عام ١٩٠١ بعد أن رفعت الاعلام على سارية معسكر واو العاصمة وأعلام اخرى رفعت على منتصف مسيرة جور غطاس .

وبالرغم عن جفاء الدينكا ومظاهر عدائهــم للغــزو ورجــاله فإن القــائد اسباركس قد وجد فى واو عندما دخلها فى مــطلع يناير ١٩٠١ قبائل صـغيرة كثيرة وتجمعات من مهاجرين هــربوا مــن دار الزاندى ودار الدينكا إنقــاذا لارواحهم فوجدوا فى دخول الحكومة السودانية الجديدة لواو حماية لهم وامنا مما عانوه من جزع ورعب فرحبوا بالجيش واستقبلوه بالتصــفيق والهــدايا ومــن القبائل التى رحبت بالجيش القــولو واندقــو وينقــو وكريش وبلانده وغيرهم من القبليات الصغيرة .

وفى صيف نفس عام ١٩٠١ امتدت الفتوحات مــن التونج الى رمبيك وبرول

---

(١) لم يشترك المصريون فى حكم الجنوب ولم يكن لهم فيه نفوذ

وشامبى من الشرق كما ارتفعت الاعلام فى غرب واو على رابية (ديم زبير) وراجا. ومع كل هذه المراكز التى افتتحت والحياة التى استقرت فيها فان الدينكا ظلوا فى عزلة واضحة عن الحكومة ومرافقها ولم يصل منهم اليها الا نفر قليل قد تعزى زيارتهم إلى الفضول وحب الاستطلاع اكثر منها ترحيبا وولاء او رضاء بالأمر الواقع.[1]

اما النوير فى المناطق المتاخمة لرمبيك فانهم لم يكتفوا بعدم الاعتراف بالحكومة ولكنهم كانوا يهاجمون جنود الدوريات العسكرية من وراء الاعشاب الغزيرة لظنهم بان الجنود يريدون الاستيلاء على ابقارهم فى المراعى وهو الامر الذى كان يحدث من دوريات الحكم التركى السابق وسرايا المهدية. وبالرغم من أن قواد جيش الحكم الثنائى ارادوا ان يشرحوا سياسة الحكم الجديد للنوير والدينكا وينظموا معهم الادارات الاهلية والقيادات القبيلية إلا أن النوير والدينكا لم يسمحوا بفرصة اللقاء إلى أمد طويل مما جعل الحكومة تعيش على اهبة دائمة لمواجهة هجوم يخطط فى أى لحظة.

ثورة الدينكا اقار:

فرع الاقار من قبيلة الدينكا يسكنون منطقة رمبيك وفى حدود متسعة منها وقد عرفوا بالشراسة وعدم الاعتراف بالنفوذ الاجنبى وفى تاريخهم ثورات ضد الحكم التركى وعدم اعتراف بسطوتهم حتى ارغموا على ذلك بالحديد والنار. وفى عام ١٨٩٧ هاجموا القوة الفرنسية بقيادة (تونكويديك) كما هاجموا الحكم المصرى التركى بثورة عارمة عند ظهور المهدية وضعف القوات المصرية وانهيار مقاومتها.

وعندما فتح اسباركس بك حامية رمبيك فى اواخر ١٩٠١ صار الاقار يهاجمون كل تجمع عسكرى او مدنى تابع للحكومة خارج المدينة مما جعلها فى حالة حرب دائمة ومما أوحى للحكومة أن الاقار سينظمون ضد الحكومة ضربة مركزة فى يوم قريب.

وفى يناير ١٩٠٢ تجمع الدينكا اقار بقيادة ميانق ماتيانق، وهو زعيم ذو قوة روحية وقبلية طاغية وهاجموا قافلة جمال حكومية تحمل عتادا

---

(١) ارض وراء الانهار – روبن كولن

ومهمات كثيرة للحكومة مـن ميناء شـامبى إلى رومبيك وقتل الثوار الكابتن اسكوت باربر وكل من معه من جنود ما عدا أربعـة مـن الحـرس هـربوا بجروحهم .[1]

وظل ميانق يحارب الحكومة فى كل مجال يختاره واستطاع ان يجمع كل الدينكا حتى خارج منطقة الاقار على عداء محكم مع الحكومة وعلى ضوء الأحوال التى تواجهها الحكومة وضح للقائد اسباركس بك أن مقتل الكابتن اسكوت ينبغى ان يكون نقطة تحول كبرى لموقف الحكومة المسالم حتى الآن وإذا حدث تساهل فى القصاص من الاقار فإن الدينكا أتوت وشيش وعالياب والنور سيتحالفون على عداء الحكومة ويتبعهم بطبيعة الحال الدينكا ربك وملوال وغيرهم .

وبهذا التحليل خرج الكولونيل هنتربك من واو بقـوة كبيرة ولجـأ إلى حيلة سياسية أخرى وهى أن يحرض الاخرين من الدينكا غير الاقار بان يصحبوه كمتطوعين لحرب الاقار ويكون نصيبهم الأبقار التى تقع غنيمة فى يد الحكومة ولان البقر إغراء لا يقـاوم عند الدينكا والنوير فقـد تبعـه عدد كبير مـن المتطوعين برغم انهم يكرهون الحكومة الجديدة ورجالها .

وزحف هنتر بك نحو الاقار وبطش بهم بسلاحه الذى لا يملكون مثله وحرق الزرع وشنق المشايخ والزعماء والمتصدرين على فروع الأشجار علنا . وبينما كان هنتر بك يجوس خلال الاقليم بحثا عن تجمعات الأبقار وصل الى شامبى الميجر استاك (الحاكم العام فيما بعد) على رأس قـوة كبيرة مـن الأورطـة العاشرة السودانية ارسلت من الخرطوم بعد معرفة مقتل الكابتن اسكوت .

وبدأ استاك عملية الحرق والشنق من شـامبى فى طـريقه غربا إلى رمبيك وواو . ولكن الزعيم ميانق الذى تسبب فى مقتل المئات ومصادرة الابقار وحرق القرى لا يزال حيا تبحث عنه الحكومة وراء كل مرتفع ومنخفض حتى ينتقموا منه ولكنه فى غفلة عسكرية من الحكومة هجم على رومبيك واوقع بها خسـائر كبيرة واختفى غير أن ضابطا سودانيا قد تمـكن مـن مهـاجمته عن طـريق الصدفة واستطاع ان يهـزم الدينكا ويقتل منهـم عددا ثم فـروا إلى داخـل الاحراش ولكن الزعيم متيانق الذى كان جريحا قـد مـات أثناء الانسـحاب وتطوع من ابلغ القيادة بذلك النبأ الذى اضـطر بعـده الاقـار إلى التسـليم للحكومة على مضض واكراه .

---

(١) ارض وراء الانهار ـ روبرت كولن

الزاندى والانجليز والبلجيك

قوة الزاندى :

ومع ان الحكومة قد وضعت يدها على معظم بحر الغزال بنهاية عام ١٩٠٢ إلا ان الجزء الاهم والاقوى فى جنوب بحر الغزال وهو (دار الزاندى) لا يزال غير خاضع للحكومة . واهمية هذا الجزء تنبع من وجوده فى منطقة الحديد مع الكنغو البلجيكى وفى داخل (اقليم اللادو) الذى اتضح ان الملك ليبولد الثانى ملك بلجيكا يسعى جهده ليضمه إلى الكنغو كتوسع استعمارى له ضرورته الاقتصادية لولا أن الزاندى بقيادة السلطان يمبيو قد وقفوا سدا منيعا دون استعمار البلجيك كما وقفوا أيضا دون أستعمار الانجليز باسم حكومة السودان .

مطامع ملك البلجيك[1] :

كان الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا قد توسع فى استعمار اراضى الكنغو الحرة متوغلا فى الأراضى السودانية أبان المهدية وفوضى تحديد معالم الحدود فوضع يده على منطقة اللادو ومنطقة أخرى فى بحر الغزال داخل حدود دار الزاندى . وكان هم الانجليز بعد فتح كتشنر وإعلان الحكم الثنائى الانجليزى المصرى هو أن يقوموا بحماية النيل وروافده حيثما كانت على اعتبار أن النيل يمثل عصب الاقتصاد المصرى بالرى فهى بذلك حريصة على حمايته مهما كلفها الامر لأن بريطانيا بعد احتلالها لمصر عام ١٨٨٢ قد صارت جميعها من بين مصالح الانجليز التى يتوجب عليهم حمايتها من اى مساس خارجى .

كان الملك ليوبولد قد طالب فعلا بأن يترك له جنوب بحر الغزال وأن يقتطع له منفذ على النيل فى منطقة منقلا ولكن النزاع لم يقف عند معارك المفاوضات والمداولات بل امتد إلى المواجهات وحشد الجيوش من الطرفين الانجليزى والبلجيكى بالرغم عن الاتفاقية التى اعطى بها الانجليز الملك ليوبولد حق التملك لمنطقة اللادو وكانت لمدى محدود ينتهى بحياته هو (ليوبولد الثانى)[2] .

---

(١) ارض وراء الانهار – روبرت كولن

(٢) السودان فى مدونات وم

ولما كان بحثنا هذا يخص بحر الغزال بالذات فإن الحديث سينحصر فيها كمديرية لم يكتمل فتحها للسودان لسنوات طويلة بعد أستقرار الحكم الثنائي منذ سبتمبر ١٨٩٨ م وكان السبب لذلك يعزى إلى أمرين أولهما : مطامع البلجيك في منطقة الزاندى ونشاطهم الدبلوماسي والعسكرى لضمها للكنغو وثانيهما : وقوف السلطان يامبيو سلطان الزاندى عقبة كاداء في سبيل البلجيك وفي طريق الانجليز أيضا لانه كان يكره الاستعمار والنفوذ الاجنبي وكان قوى الشكيمة وواسع التبعية مع رجاحة رأى لم تتوفر لزعيم جنوبي اخر .

ومع ان الانجليز قد امتنعوا بصلابة واصرار عن مطلب الملك ليوبولد في مناطق النيل باللادو لما ذكرنا من أسباب إلا انهم لم يمتنعوا عن تعويضه عن ذلك بارض في بحر الغزال لا تتصل بالنيل ولا بروافده وبذلك حرم « اللورد لانثدون » وزير خارجية بريطانيا بانه لا باس بان يضاف للكنغو جزء من بحر الغزال لا تكون روافده ذات اهمية لزيادة رى النيل ولا تكون ذات صلاحية ملاحية تصله بالنيل .

ولم تعجب تلك الاشتراطات الملك ليوبولد الذى كانت اهتماماته منصبة على النيل وليس على التوسع الارضى فرأى ان يعزز وسيلة المفاوضات السياسية في أوربا بتحركات عسكرية في بحر الغزال وهو نفس الرأى الذى نفذه الانجليز في بحر الغزال عن طريق قواتهم التى تحركت عام ١٩٠١ إلى منطقة الملك طمبرة الذى رحب بجيش أسباركس بك وهيأ لهم كل وسائل العون القبلى ومنحهم ولاء الزاندى والقبائل الاخرى التى يهيمن عليها .

وبوصول قوات حكومة السودان إلى طمبرة أستطاعوا ان يضعوا أرجلهم على أرض صلبة في دار الزاندى كما أستطاع طمبرة نفسه ان يطمئن على كيانه ومركزه من سطوة السلطان يامبيو الذى كان يخشاه . وظل القائد الانجليزى أسباركس في مقر قيادته لدى السلطان طمبره يحاول إستمالة السلطان يامبيو بكل وسائل الملاطفة والوعود يتبعها كثير من الهدايا المادية القيمة من اسلحة وخيام وملابس وغير ذلك ولكن السلطان يامبيو لم تصدر منه أى إستجابة لذلك الغزل السياسى الاستعمارى رغم انه يدرك قوة الحكومة الانجليزية الجديدة في السودان وبخاصة بعد أن حصلت على صداقة ومحالفة السلطان طمبرة وبعض السلاطين الصغار اتباع يامبيو نفسه

مما يضعف قـوته ولكن قناة يامبيو لا تلين وكرهـه للنفـوذ الاجنبى لم يتغير او يتبدل .

وقد بلغ طمع البلجيك فى مناطق بحر الغـزال المؤبية إلى مشـارف النيل أن ارسلوا قوة بقيادة (لامير Lamaire) خرجت من منطقة نهـر باى وتوغلت إلى خط رمبيك ـ يرول ـ شامبى للاستطلاع ومعرفة مدى قوة حكومة السـودان وسيطرتها على هذه المنطقة مع معـرفة الأسـلوب الذى يجـذبون به الدينكا وجيرانهم النوير فى الشمال .

ولكن حكومة السودان لم تتردد فى أن تخرج إليهـم بقـوة يقـودها الكابتن (بول) مفتش رمبيك وحدثت مواجهات على البعد ساعد فيها الحظ حـكومة السودان لأن الدينكا والنوير واجهوا البلجيك بعداء وتحفـز لصـدام شـامل لمجرد أن البلجيك كانوا يصطحبون فى الحملة كثيراً من الزاندى والكنغـوليين الذين يكرههم الدينكا بطـريقة تقليدية عريقـة . ومـــن المؤكد أن القـــوتين العسكريتين للسودان والكنغو لم يكن بوسع اى منهمـا أن يبدأ قتالا او يطلق الشرارة الأولى لأن أمر النزاع فى بحر الغزال لا يزال يبحـث فى المسـتويات العليا فى أوربا . بين الملك ليوبولد وحكومة لندن كما أن تعليمات اللورد كرومر فى مصر والجنرال ونجت فى الخرطوم كانت واضحة وحاسمة لادارة حـكومة السودان بأن لا يزيد نشاطهم عن التظاهر العسكرى وإظهار القوة والأصرار على عدم التخلى عن بحـر الغـزال وان لا تصـطدم القـوات عمليا بدوريات البلجيك ولا تبدأ هجـوما على السـلطان يامبيو الذى ادرك الانجليز انه ليس معهم ولكن ايضا ليس مع الملك ليوبولد الثانى وقرروا أن مـوقف اللا حـرب واللا سلم مع يامبيو هو الوضع الأصح والاسلم للوقت الحاضر .

السلطان ريكتا وفشل التعاون مع الانجليز :

ومع التعليمات بأن لا تنشب حرب بين بريطانيا والبلجيك فى أفـريقيا فقـد نشط الجانب الدبلوماسى فى أوربا لحل المشكلة وامتد إلى مصر فالخرطوم ثم وصل بحـر الغـزال فبدأ مـدير المديرية العمـل على اجتذاب ولاء ومناصرة السلطان (ريكتا) ابن السـلطان يامبيو الذى كان يحـكم الاقليم الشـمالى للزاندى تجاه منطقة التونج وبنجاح هذه الخطة تكون الحكومة قـد وضـعت يدها على منطقتين هامتين من دار الزاندى إحداهما تحت السـلطان طمبرة والاخرى تحت السلطان ريكتا ابن السلطان يامبيو .

وبدات الحكومة اتصالاتها بالسلطان «ريكتا» عن طريق بعض رجال الزاندى الذين انتدبهم لها السلطان طمبرة صديق الحكومة وبعض العاملين مع الحكومة منذ دخولها من ابناء الزاندى . وقد زود حاكم بحر الغزال اولئك السفراء بكثير من الهدايا الشخصية كالملابس وأدوات الزينة والسلاح الخفيف ومعدات الصيد وغير ذلك كعربون لصداقة ومحالفة ترضى الحكومة معها بكفالة سلطات السلطان وحقوقه المكتسبة والموروثة .

وكان « ريكتا » بحكم الوضع الجغرافي لمنطقته قريبا من يد الحكومة كثير الميل للتعاون معها وبخاصة بعد تعاون السلطان طمبرة ولكنه كان يخشى سطوة ابيه « يامبيو » الذى يرفض كل نفوذ أجنبي . ومع ذلك فقد وعد مدير بحر الغزال بالتعاون وإعلان الولاء في الوقت المناسب .

واعتبرت حكومة السودان تلك الخطوة نجاحا باهرا جاء عن طريق التفاهم والاقناع ووصلت انباؤه للخرطوم والقاهرة ولندن كمرحلة اولى لاقناع السلطان يامبيو او الاستيلاء على مملكته إن لم يكن من ذلك بد للحكومة .

المعركة الخاسرة

وعند تقرير الفـرصة المناسـبة للزحـف على إقليم السـلطان « ريكتا » فى مستهل عام ١٩٠٤ انتدب الميجور وود بك لقيادة ثلاثمائة جندى نظـامى مـن الأورطة الخامسة عشر تجمعـت فى التونج واتجهـت جنوبا نحـو الزاندى – وارسل للميجور وود للسلطان ريكتا بعض الاعلام لترفع دليلا على التعـاون والتحالف ولكن (ريكتا) ارسل للميجـور وود بأن يتريث فى دخـول الزاندى ليعطيه مزيدا من الفرص للتفاهم مع أبيه السلطان يامبيو او يجد طريقا آخر للتعاون مع الحكومة .

ولكن الميجور وود – وقد كان على جانب كبير مـع التهـور والحمـق كمـا وصفته تقارير رؤسائه – قد ركب راسه واقتحم منطقة السلطان « ريكتا » ظنا منه بانه سيضع السلطان أمام الأمر الواقع بذلك التصرف ولم يدرك أنه قـد افسد كل النجاح الدبلوماسي الذى نسـجت خيوطـه مـن لندن والقـاهرة والخرطوم ووضع جاهزا للتنفيذ على يد ضابط متهور .

ولم يتوقع الميجور وود أن السلطان ريكتا يمكنه أن يرفع السـلاح فى وجـه الحكومة السودانية بعد الاتفاق على التعاون ولكن « ريكتا » قد ارتد عن فكرة التعاون لسببين :

اولهما : ان تصرف الميجور البريطاني باقتحـام داره وقـريته بالسـلاح قـد اعتبره إهانة وتحقيرا لشانه كسلطان .

ثانيهما : أن احترام ريكتا لوالده سلطان يامبيو كان عظيما بحيث لا يمكنه أن يصطحب قوة أجنبية مهما كانت التزامـاته نحـوها لتحـارب أبيه وتقهـره وتخضعه بحد السيف للولاء لحكومة السودان .[1]

ولهذين السببين اسـتقبل ريكتا سرية الميجـور وود بالعـداء والمواجهـة العسكرية بما لدى ريكتا من سـلاح نارى وباسـتعمال السـهام الذى يجيده الزاندى . ولكن الميجور وود الذى اندهش لمقـاومة ريكتا وهـو امـر لم يكن يتوقعه قد استعمل قوة سلاحه المتوفق على سـلاح الزاندى وهـم المكسـيم

(١) ارض وراء الانهار – روبرت كولن

والمدافع الجبلية ولم يكن للزاندى بد من الهـزيمة أمـامه ولكن ريكتا وبعض رجاله قد هرب وانضـم إلى ابيه يامبيو تائبا مسـتغفرا مـن سـابق وعوده لحكومة السودان .

والتفت الميجور وود بعد فرار الزاندى ليجـد أن كل الحمـالين الذين كانت الامتعة والغذاءات بأيديهم قد رموها على الأرض وفروا مع أهلهـم الزاندى كما فر خبراء الطريق وغيرهم .

ومن ناحية أخرى فإن الميجور وود لم تكن لديه الصلاحيات مـن رئاسـته ليزحف نحو السلطان يامبيو إلا بمعـرفة سـلطان ريكتا وفيمـا حـدث منه وانعكس على السلطان ريكتا وانضمامه لابيه ما يكفى لأن ينسحب الميجـور وود مرتداً إلى منطقة التونج بعد معـركة خـاسرة خسر فيهـا جنوداً وعتاداً وسياسة احكم تدبيرها افسدها التهور والشطط . ووصل الميجور إلى مركزه ليواجه مسئولية ضخمة عما حدث منه فى ٢٥/ ٢/ ١٩٠٤

محاولات اخرى للبلجيك :

ومع طلائع خريف ١٩٠٤ اقتحم القائد البلجيكى « لامير » مـع قـوة كبيرة جدا شواطىء بحر النعام وكل منطقة امتولو وهى مناطق تقع فى داخل حـدود بحر الغزال بل متوغلة فيه .

واستنجدت إدارة بحر الغزال بالخرطوم وارسل السير ونجت الحاكم العام كل جنود الأورطة التاسعة السودانية وبلغ تجمع القوات السودانية لمواجهـة قوات الكنغو نحوا من التسعمائة جندى ولكن تجمعات الكنغو مـن اللادو إلى بحر الغزال قد زادت عن عشرين الف جنديا بأسلحة متكافئة ان لم تكن أقوى من سلاح حكومة السودان .

وأبرق السير ونجت باشـا إلى اللورد كرومـر فى القـاهرة أن البلجيك لن يقهرهم إلا إرسال فرقتين من الجيش الانجليزى لبحر الغزال وذهـل اللورد كرومر لهذا الطلب لصعوبات ضخمة تعترضه منها أن الحكومة البريطانية لم تعترف حتى ذلك الحين بضرورة النفقـة البريطـانية على احتلال السـودان وما عسى أن تكون الفائدة منه . ومنهـا أن مناخ بحـر الغـزال مـن الناحية الصحية سيدمر حياة كثير من الانجليز وتلك مغامرة لا يتحمل مسـئولياتها . ولهذه الأسباب فقد أحجـم اللورد كرومـر عن الاتصـال بلندن لطلب الجنود

ولكنه ـ بطريقته الدبلوماسية ـ أوحى للورد سالسبرى رئيس الوزراء ليسعى جهده لنجاح اى اتفاق مع ملك البلجيك الذى كان يفاوضهم لتنتهى المحنة بالطرق السلمية دون اللجوء للمواجهة العسكرية التى تخشى حكومة السودان مغبة نتائجها .

وتنفسوا الصعداء :

وفجاة ـ ومن غير معلومات رسمية لدى القوات السودانية ـ رأوا أن جنود البلجيك من الأوروبيين والكنغوليين تنسحب من منطقة بحر النعام وامفولو وغيرها وتتجمع داخل منطقة اللادو . ولم تعلم القيادة باسباب ما حدث حتى وصلت تعليمات الخرطوم بأن ترسل كل قوات الفرقة التاسعة وبلوكات الفرقة الخامسة عشر للخرطوم عن طريق البواخر التى تنتظرهم فى ميناء مشرع الرنك خلال شهر يونيه ١٩٠٤ وقبل أن تقفل الطرق باشتداد الخريف فيسجن كل هذا الجيش فى بحر الغزال .

وتنفس مدير بحر الغزال الصعداء وأرسل كل الجنود الذين وصلوا كامدادات طارئه إلى الخرطوم وبقى يعمل تحت ظل القوات المرصودة أساسا لبحر الغزال فى واو والتونج وطمبرة ورمبيك وشامبى .

ومع أن جنوب بحر الغزال الذى يقع تحت نفوذ السلطان يامبيو لم يزل مستقلا ومعتصما بقوته الذاتية عن حكومة السودان وحكومة البلجيك ـ إلا أن الاحوال فى بقية بحر الغزال قد استقرت فى يد الحكومة نوعا ما ومنحتها الفرصة لتنظيم الادارة المركزية والادارة الاهلية وبناء المرافق المدنية والعسكرية .

ولكن الوضع الشاذ لحكومة السودان مع ما عساه يحدث فى دار الزاندى مع السلطان يامبيو لا يزال يقض مضاجع الحكام ويقلق راحتهم لأن الوضع السياسى بين بريطانيا والملك ليوبولد الثانى يعترض أمر الاحتكام إلى القوة العسكرية من جانب حكومة السودان .

الانتصار على السلطان يامبيو :

لم يكد الجنرال لامير قائد القوات البلجيكية يبرح منطقة بحر الغزال بكل جنوده عن طريق النجاح الانجليزى الدبلوماسى فى أوربا ـ حتى اتجه تفكير السير ونجت باشا الحاكم العام إلى إرسال قوة عسكرية ضاربة تقتحم دار

الزاندى وتهزم السلطان يامبيو عسكريا وتضم الاقليم إلى المديرية لان موقف اللاسلم واللا حرب مع يامبيو قد بدأ يشعر الحكومة بمساس فى قوتها وهيبتها وكبريائها .

واعتمدت الحكومة بقدر كبير من الثقة على السلطان طمبره الذى كان فى محنة وازمة يبدى شعورا وخدمات ودية دلت على حقيقة ولائه لحكومة السودان أو (للانجليز) كما كان يقول هو . ولو ان الحكومة ـ منذ ان عسكر اسباركس بك فى طمبره عام ١٩٠٢ ـ قد اشتبهت فى ولاء السلطان طمبره لكان لها معه شان آخر .

وفى ابريل عام ١٩٠٤ كتب السلطان طمبره إلى مدير بحر الغزال بعد ان عرف نية الحرب مع يامبيو ـ كتب يقول للمدير :

« إذا كان هناك عزم للذهاب للسلطان يامبيو فليكن ذلك بتخطيط للحرب ولا شى غير الحرب فإن وافقتم على ذلك فإنى معكم فى هذا الأمر مطيعا لاننى اعرف اساليب السلطان يامبيو[1] » .

وفى يونيه ١٩٠٤ ارسل باولنويز بك مدير بحر الغزال الكابتن « بثل » إلى طمبره بمطالب كبيرة مما يتعلق بالتحضير لحملة ضخمة وامضى كابتن بثل مدة تزيد عن الشهرين لاعداد الحمالين والمواد الغذائية والطرق والسلاح المحلى من حراب ونشاب وغير ذلك وعاد فى اغسطس بتقرير حوى وعودا مغرية للاسراع بالحملة على جنوب الزاندى .[2]

واكتمل كل تجهيز للحملة بين سلطات الخرطوم وبحر الغزال وبعد نهاية خريف ١٩٠٤ مباشرة ابحرت البواخر النيلية من ميناء المقرن بالخرطوم ومن ميناء التوفيقية (العاصمة قبل ملكال) تحمل نحو الف جندى من فرق الأورطة التاسعة والعاشرة والخامسة عشر متجهة نحو مشرع الرك ميناء بحر الغزال وكانت تلك الحملة فى مكتمل قوتها وصلاحيتها ولياقتها العسكرية والقتاليق مزودة بأحسن الأسلحة وكميات ضخمة من الذخيرة والأغذية والمعدات العسكرية المختلفة .

وكان يقود تلك القوة نحو اربعين من الضباط الانجليز والمصريين ووصلت القوة إلى مدخل بحر الغزال فى ديسمبر ١٩٠٤ وتولى القيادة مدير بحر

---

(١) من كتاب ارض وراء الانهار للمؤرخ روبن كولن

(٢) ارض وراء الانهار ـ روبن كولن

الغزال بنفسه بولونيز بك ثم انقسمت القـوة الى فـرقتين احـداهما بقيادة القائمقام سنزلاند بك ومسيرتها من رمبيك إلى انقولى ومنهـا لدار الزاندى من الشمال والفرقة الثانية وهـى أكبر حجمـا وعتادا فـانها سـتدخل دار الزاندى من الشمال الغربى بقيادة المدير مع قوات السلطان طمبره المساعدة .

وكانت الخرطوم قد أعطت مـدير بحـر الغـزال كل الصـلاحيات للتصرف العسكرى الذى يراه فى تلك المعركة التى اعتبروها فاصلة او يجـب أن تكون فاصلة[1] وذلك هو السبب فى حشد كل تلك القوات ومعداتها ولكن الصلاحيات قد شملت ايضا إمكانية التفاوض مع السلطان يامبيو على اساس واحد هـو قبول الولاء التام للحكومة ورفع علم الحكم الثنائى الذى سيطلق يد السلطان فى حكم قبيلته .

ومع أن الحكومة تعلم أن حيوانات النقل لا تعيش فى منطقة الزاندى بسبب ذباب (تسى تسى) إلا أنها استوردت من الخرطوم مئات الحمير لتسـاعد على الاقل فى مرحلة الزحف الأولى من المشرع إلى طمبره والمنطقـة الشرقية وقـد حدث ذلك فان الحمير بعد توغلها فى دار الزاندى تساقطت كلها بسبب الذباب ولجات القوات إلى استعمال الحمالين الذين عينهم السلطان طمبره وصـغار السلاطين الموالين للحكومة فى تلك المنطقة .

وقبل ان يبدأ الهجوم على السـلطان يامبيو ترامـى إلى أسـماع القـوات السودانية نبأ عجيب ومثير وهو ان الجنرال لامير البلجيكى قـد نشر قـواته تجاه بحـر الغـزال وأنه ينوى مـن الناحية الجنوبية غزو السـلطان يامبيو ايضا . وهنا راى اسباركس بك ان يسرع هو بالغزو للسلطان يامبيو ليضـع البلجيك أمام الأمر الواقع باعتبار ان المنطقـة تدخـل جغـرافيا فى حـدود السودان المتفق عليها فى معاهدة برلين بين بريطانيا والملك ليوبولد الثانى عن بلجيكا عام ١٨٩٤[2]

واسرع قائد حكومة السودان بارسال الميجور « فيل » وكابتن « كارتر » مع قوة من الجنود ليقتحموا المنطقة لازالة العوائق الأولية مثل وجـود سـلاطين فرعيين بين منطقة طمبره ويامبيو كالسلطان اندورما ولكن القوة التى وصلت وجدت أن السلطان اندورما قد توفى منذ عدة شـهور وخلفـه ابنه السـلطان « انقوتا » الذى واجه قوات الحكومة بولاء واستسلام غير مصـطنع لأنه يميل للسلطان طمبره ضد يامبيو ويطمع فى توطيد مركزه وتوسيع إدارته بعد إزالة

---

(١) السودان فى مدونات ومذكرات

(٢) ارض وراء الانهار – روبرت كولن

السلطان يامبيو الذى يمثل بالنسبة له ذعرا كثيرا وعدم إستقرار يسعى جهده لازالته . وقد صرح السلطان انقوتا أنه مثل طمبره يرى أن يخضع للحكومة على بعدها فى واو من ان يخضع للسلطان يامبيو . وباستعراض اسباركس بك لاربعمائة من الضباط والجنود فى منطقة السلطان انقوتا اطمأن الزاندى هناك من الخوف الذى كان ينتابهم من السلطان يامبيو . وفتح الجيش طريقا إلى منطقة « زنقمبيا » التى تبعد اربعين ميلا فقط عن مقر السلطان يامبيو وفى اخر يناير اكتمل الجيش لدى السلطان « زنقمبيا » بكامل معداته للمرحلة الأخيرة .

وبينما كانت القوات السودانية تقترب من يامبيو كان هو يحارب بضراوة وشراسة فى الناحية الجنوبية ضد قوات البلجيك الذين استعانوا بالسلطان رنزى الذى كان متعاونا معهم ولكن يامبيو الذى كان يقاوم فى الجبهتين بسلاح يتكون معظمه من النشاب والحراب مع قليل من الأسلحة النارية كان لابد ان ينهزم امام الكنغوليين وسلاحهم المدفعى والرشاش .

ولان المثل يقول (مصائب قوم عند قوم فوائد) فقد استفادت القوات السودانية من إنهاك يامبيو من حرب البلجيك بأن سئم الشيخ الذى رفض الاستسلام والاستعمار فمنع جيوشه من مقاومة القوات السودانية حقنا لدماء الزاندى التى اهدرت بكميات كبيرة فى كل تلك الحروب ولكنه حرصا منه بأن لا يقبل استعمار منطقته باولئك او هؤلاء قد تعاطى نوعا من السم الذى يستعمله الزاندى لينهى حياته قبل ان يتورط فى عملية استسلام لحكم اجنبى كان يسعى جهده آن لا يترك سبيلا لسيطرته على بلاده .

وعندما أسرعت القوات السودانية لاقتحام منطقة يامبيو لم تجد مقاومة من أى نوع وظل القائد يبحث عن السلطان يامبيو حتى يوم ٩ فبراير ١٩٠٥ م(١) فوجده ميتا فى قطيه بعيدا عن منزله متاثرا من سريان السم التقليدى الذى تعاطاه خلاصا من حياة ستنقلب إلى وضع لا يريده . واحتفل الانجليز بدفنه كبطل عظيم الشأن واطلقوا اسم يامبيو على بلده التى كانت تسمى فى حياته (بلكيوى) .

والغزو الذى كان سباقا بين دول الغرب المستعمرة بريطانيا وبلجيكا لابد أن ينتهى بينهما على وفاق لا يؤدى إلى حرب بينهما لان طريق التسويات متسع لأصحاب المصالح والأطماع . ولكن هل حدث ذلك الوفاق ؟ .

---

(١) كتاب ارض وراء الانهار للمؤرخ روبن كولن

إن الذى حدث فعلا كان تفاقما جديدا للنزاع والصراع بين حكومة السودان او بالاحرى الحكومة البريطانية فى لندن وبين ليوبولد الثانى ملك البلجيك . وقد وضحت إرهاصات النزاع الذى ادى إلى مواجهات عسكرية خطيرة بعد انتصار قوات بحر الغزال السودانية على مملكة السلطان يامبيو .

اتضح عقب الانتصار على يامبيو وإعلان وفاته ان ابنه « مانجى » لم يسلم واستمر فى مقاومة القوات السودانية بطريقة تشبه حرب العصابات او (الغوريلا) وتصدت له قوة عسكرية بقيادة الكابتن (غردون) لارغامه على التسليم والتقت هذه القوة بقوة حكومية سودانية أخرى فى ٢٥ فبراير ١٩٠٥ يقودها الكولونيل (مـنزلا ند) الذى وصل دار الزاندى من ناحية الشمال الى منطقة (ريكتا) وقد وصل إلى علمه بان البلجيك قد شيدوا تحصينات قوية ومتعددة خارج إقليم اللادو وداخل منطقة بحر الغزال بين نهرى مريدى والنعام وقد تاكد للانجليز من هذا الوضع اسباب استمرار (مانجى يامبيو) فى المقاومة لانه اراد ان يستفيد بقاء وتعزيزا بمواجهة البلجيك للانجليز .

ومن المفاوضات المحلية اتضح للحكومة ان البلجيك قد صمموا فى هذه المرة على اقتحام بحر الغزال واستلام ميناء شامبى على النيل الرئيسى ووصلت الأزمة إلى الخرطوم فالقاهرة فلندن وتحصن ونجت باشا لحرب البلجيك وإجلائهم نهائيا عن حدود السودان ولكن اللورد كرومر فى القاهرة وهو السلطة التى يجب أن تمد الخرطوم بالقوة العسكرية المطلوبة من الجيش المصرى فإنه لم يتحمس لاسلوب القوة بقدر ما راى ان الامر يعود مرة أخرى للحلول الدبلوماسية مع الملك ليوبولد . وحدثت الاتصالات على أعلى مستوى فى اوربا . وراى الانجليز ان التحدى البلجيكى لحقوق السودان وقواته العسكرية يجب ان يقابل هنا بصرامة ومواجهة سياسية صلبة ترفض كل تدخل من سلطات الكنغو ضد سلطات حكومة السودان فى حماية وصيانة بحر الغزال .

وبعد مزيد من الشد والجذب والتهديدات من الجانبين لم يجد الملك ليوبولد بدا من الاذعان للأمر الواقع ويسحب قواته مرة أخرى من بحر الغزال

ويتركها للادارة السودانية لانه لم يجد مبررا من ضروراته المحلية فى الكنغو لخلق عداء يمتد إلى توتر بريطانيا ضد بلجيكا فى أوربا وقد تؤدى الحرب فى الحدود السودانية فى نهاية المطاف إلى حرب فى اوربا لم يكن ملك البلجيك فيها ندا لبريطانيا وقوتها .

ومع خلاص منطقة بحر الغزال من النشاط العسكرى وبداية عودتها إلى تنظيم الحكم الادارى مات مديرها (بولونس) بالدسنتاريا فى واو وقد كان رجلا فى راى ونجت وكرومر على جانب كبير من سعة الأفق والدبلوماسية مع المقدرة العسكرية وإليه يرجع الفضل فى تحالف السلطان طمبره مع الحكومة والفضل فى نجاح تخفيف التوتر بين الحكومة والكنغو مع القائد لامير . واستلم المديرية أكبر الضباط رتبة وخبرة وهو الميجور (فيل) ولكنه توفى بعد شهر واحد بالحمى السوداء .

وعندما علم لورد كرومر بذلك استشاط غضبا وقال ان بحر الغزال لا تستحق الحرص عليها بضياع ضباط اكفاء مثل أولئك .

اتفاقية مصير اللادو :

وأخيرا وبعد كل المحاولات والمغامرات من جانب ملك البلجيك أن يحتل بحر الغزال وينشىء مواصلات سكة حديد اللادو والجهود العسكرية والسياسية التى بذلها ليجد منفذا إلى النيل ــ بعد كل ذلك انتهت مشكلة الحدود السودانية الكنغولية باتفاقية سياسية جديدة نقضت اتفاقية برلين عام ١٨٩٤ بين الدولتين وبلجيكا ولكنها ــ أى الاتفاقية الجديدة ــ قد قررت إعطاء الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا حق امتلاك اقليم اللادو بحدوده الممتدة تجاه بحر الغزال وبحر الجبل على أن ينتهى ذلك الامتلاك تلقائيا فى اليوم الذى تنتهى فيه حياة الملك ليوبولد الثانى .

أبرمت تلك الاتفاقية فى آخر ابريل ١٩٠٦ على يدى السير الدون غورست المندوب السامى لبريطانيا فى مصر ممثلا للجانب الانجليزى والبارون فان اتفيلدى ممثلا لجانب بلجيكا وقد وافقت السلطات العليا فى لندن وبروكسل على الاتفاقية بالرغم من أن الملك ليوبولد قد سخط عليها وعلى البارون الذى وقعها واقصاه عن عمله .

وفى ١٧ ديسمبر ١٩٠٩ مات الملك ليوبولد الثانى وانتقل إقليم اللادو إلى السودان عملا بالاتفاقية .

خاتمة :

من هذا البحث التاريخي عن بحر الغزال والصعوبة التي استقر بها الحكم الثنائي في ربوعه يتضح أن مديرية بحر الغزال والجزء الجنوبي بصفة خاصة لم تذعن للحكم الجديد إلا بعد مضي سبع سنوات من إذعان السودان كله للفتح الانجليزي المصري . وإن معارك الحكومة مع الدينكا والنوير اولا ثم مع الزاندي واصرار يامبيو على الاستقلال قد كلفت الحكومة من النفقات المالية بما يقرب من كل نفقات الحملة الانجليزية المصرية من دنقلا حتى موقعة كرري وقد كلفتهم كذلك في الارواح ما يقرب من ذلك اذا اضفنا لضحايا المعارك اولئك الذين قضوا نحبهم بالامراض في الاحراش والمستنقعات . ولم يحدث في اي اقليم اخر بالسودان أن ووجه الحكم الجديد بتلك المقاومات الدموية الملحة التي لم يخذلها سوى عدم التكافؤ في السلاح والقيادة العسكرية .

وقد رأيت اخيرا ان لا تنتهي هذه الخاتمة عن قصة بحر الغزال قبل ان نحاول تعريف السلطان يامبيو والسلطان طمبره للقراء لاهمية دور كل منهما في ملوك منطقة الزاندي مع الجيش الفاتح ولاء او عداء .

الفصل الثامن

السلطان يامبيو

السلطان يامبيو

اسمه « جبدوى » ولكنه عرف باسم يامبيو فلم يعد لاسم الطفولة وجود وقد عرف يامبيو بانه كان اقوى واقوم واشجع سلاطين الجنوب السوداني كله على الاطلاق . وقد ولد فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر واعجب به والده السلطان « بازنجى » منذ طفولته فاحتفظ به مراقبا فى محكمته ليتدرب على طريقة الحكم فى مشاكل الناس ويتعلم وسائلهم فى الدعوى والدفاع وغير ذلك .

وفى شبابه الباكر وضحت مقدرته وسعة افقه فى الادارة والقيادة للمدى الذى احتفظ به والده معه فى رئاسة المملكة ليخلفه ولم يعينه وكيلا له فى إقليم آخر مثل ما فعل بأبنائه الآخرين .

وكانت قوة الزاندى بالنسبة للقبائل الصغيرة متفوقة وطاغية ولذلك كان التوسع فى سلطاتهم شرقا وشمالاً يتمدد من حين لآخر . ولكن سرايا المغامرين مع التجار المصريين والعرب السودانيين بدات تدخل دار الزاندى بحثا عن سن الفيل وريش النعام ويستبدلونهما ببعض الحلى والملابس وأحيانا بعض السلاح وبدأت علاقات المغامرين من الزاندى تأخذ طريقها إلى الود والصداقة إلى أن حدث أن أساء أحد التجار ذات مرة إلى والد يامبيو فأسرها يامبيو وصنع كمينا للتاجر وقافلته فقتلهم واستولى على سلاحهم ومتاعهم .

ثم احتل البلچيكيون الكنغو واغرتهم سعة الأراضى الافريقية الى التوسع فى ارض الزاندى الذين تعلموا على ايدى البلجيك أساليب الدفاع لحماية بلادهم . ومات « بازنجى » والد يامبيو فى عام ١٨٦٦ تقريبا وخلفه يامبيو سلطانا على الدار الرئيسية وحدها لانه لم يشأ ان يخضع اخوانه السلاطين لحكمه كوريث للعرش لانه يعرف ان قيمته الذاتية لدى القبيلة كلها هى التى ستضعه على راس السلاطين ولكن اخاه الاكبر واسمه (انقيما) قد تعجل طريق الشر لانه يعرف مستقبل يامبيو الكاسح بالنسبة له فاصطدم بيامبيو الذى هزمه وقتله . وكان (انقيما) شريرا وسفاحا ابتهج الزاندى كثيرا لقتله .

ومع ان الزاندى فى مناطق مختلفة من سلطناتهم قد تعـامـلوا مـع العـرب المغامرين للتجاره والرقيق ومدوهم بمطالبهم لقـاء تبادل تجـارى فى السلع الا ان يامبيو لم يثق فى العرب ابدا وقـد ظلوا خشـية مـن نقمته وقسوته لا يمكثون فى اى مكان من دار الزاندى الا ريثمـا يفـرغون مـن قضـاء اغراضهم .

ولكن عام ١٨٧٢ قد انفتح بنبأ جديد وهوان الزبير رحمة منصور المغـامر العربى من شمال السودان الذى اشتهر بقوة سلاحه ورجاله قـد اقتحـم دار الزاندى من الشمال وكان يحمل كثيرا من الهدايا التى استمال بها كثيرا من صغار سلاطين الزاندى واستطاع اخيرا ان يبرم حلفا مع السلطان فى شمال الزاندى ويشيد طوابى وحـاميات حـربية محصـنة ويتزوج ابنة السـلطان (تكما) ويكون له مملكة من داخل نفوذ سلاطين الزاندى للاستغلال التجارى الذى تحميه القوة والسلطة والسلاح .
ولكن الزبير الذى استبدت به فكرة فتح دارفور من ناحية غرب بحر الغزال لان قوافله عبر دار الرزيقات بمنطقـة (شـكا) كانت تلاقـى هجـوما ونهبا متكررا ـ قد قرر ان يقوم الى دار الرزيقات ليضع للنهب والسلب حدا نهائيا . ومن ثم فقد ترك بحر الغـزال ودار الزاندى لابنه سـليمان الزبير واتخـذ له جيشا من ابناء وسط بحر الغزال وفرض نفسه مـديرا لبحـر الغـزال يمثل الحكم المصرى ولم يسع الخديوى الا ان يقر ذلك ويمنحه لقب بك مع سـلطات المديرية الرسمية .
وفتح الزبير كل دارفور بعد معركة منواشى وقتل السلطان ابراهيم قـرض بعد حرب مع الرزيقات انتصر فيهـا ايضـا ودخـل الفـاشر عام ١٨٧٤ ثم استدعاه الخديوى إسماعيل ليكرمه بعد ان خلع عليه لقب باشا ولكنه ـ خوفا من طموحه ـ حدد اقامته فى مصر بحلوان حتى انتهى الفتح المصرى وانتهـت المهدية ايضا .

اما ابنه سليمان الزبير فى دار الزاندى فقد كان بعـد ذلك هـدفا للحـكومة المصرية التى عينت جيسى باشا مديرا لبحر الغـزال واوكل اليه امـر اجـلاء حاميات تجار الرقيق مع صلاحيات قتلهم ان لم يستسلموا . وبما ان سليمان الذى لجا لحاميتهم فى (ديم زبير) بغرب بحـر الغـزال قـد رفض التسـليم

ليجيسي باشا فقد ركزت الحكومة على قتاله حتى استطاعت ان تاخذه على غره ونقتله وتشتت رجاله عام ١٨٧٨ بعد مجزرة فظيعة من محاكمات الاعدام لرجاله ليس هذا مجال تفصيلها .

فى تلك المعارك الحكومية ضد (الجلابة) على العموم وضد سليمان الزبير بخاصة كان سلاطين الزاندى فى صف الحكومة وبخاصة طمبره وزيميو واندورما وغيرهم وقد كافاهم جيسى باشا بكثير من السلاح واموال الجلابة ولكن السلطان يامبيو الذى كان اشدهم كرها للتجار والعرب كان اقلهم حماسا لمناصرة الحكومة بل انه لم يشترك معها بعون او تشجيع مما جعل النظر اليه من جانب الحكم المصرى عدائيا اكثر منه وديا .

وفى ذات مرة من عام ١٨٨١ طمع تاجر مغامر لديه قوة عسكرية فى هزيمة طمبره واستعان بالسلطان أندورما وهو ايضا صاحب مصلحة فى ابادة يامبيو فقادوا حملة لقتاله ولكنه دحرهم بقوة وبسرعة . وعاد السلطان اندورما مهزوما ليحيك الاكاذيب للحكومة ضد يامبيو حتى اضطرها لتسيير حملة عسكرية لقتاله يقودها رفاى الزبير وهو أحد موالى الزبير وقواده وقد انفصل عن سليمان الزبير وانضم الى جيسى باشا مدير بحر الغزال واشتهر بحسن القيادة وذكاء التدبير .

واقتحم رفاى منطقة يامبيو بسلاح متفوق ومعه السلطان اندورما بمتطوعيه من الزاندى واستطاعوا ان يهزموه فى تلك المرة وسجنوه واساءوا معاملته فى سجنه بديم زبير مقر الحكومة الذى ظل فيه حتى عهد المهدية حينما هزم الأمير كرم الله كركساوى الحكومة وتسلم زمام حكمها باسم المهدى وأطلق سراح يامبيو الذى عاد مسرعا لدار الزاندى لينزع الحكم من ابنه (مانجى) ويتربع على عرش مملكته بعيدا عن مطامع المهدية التى لم يعرف امراؤها الاستقرار لوضع سياسة محددة مع الزاندى وغيرهم .

ولكن القائد العربى دفع الله غزا الزاندى مرة اخرى اثناء هربه من منطقة النيل واصطدم مع جيش يامبيو ولكن الزاندى انهزموا ثم تفرقوا فى الاحراش والغابات وجمعهم ، يامبيو مرة اخرى وواجه بهم جيش الخليفة فاستماتوا فى هذه المرة بما جعل الانصار يرحلون عن دار يامبيو فى جنح الليل .

وهكذا كان السلطان يامبيو عدوا لمن يطمع فى داره وأرضه سواء كانوا اتراكا او انصارا او بلجيكا أو إنجليزا وكان له مع كل أولئك مواقف رجولية وبطولية قل ان نجد لها مثيلا فى مرحلة من مراحل تاريخ السودان .

السلطان طمبره :

كان السلطان « ليوا » والد السلطان طمبره قد أسس سلطنته فى منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥٠) تقريبا فى اقصى شمال دار الزاندى من حيث وضعها الجغرافى ولهذا فقد كان اكثر سلاطين الزاندى تعرضا لنشاط تجار الرقيق الأجانب والعرب ومناوشتهم له ولرعاياه .

وفى حوالى عام ١٨٧٤ قتل السلطان (ليوا) على يد أحد (البازقر) من قواد المغامر المغربى او التركى على الارجح (كوتشوك على) ووقع طمبره مع اخيه جدى اسرى فى يد الغزاه الذين خربوا الدار وشردوا اهلها .

وفى واو حيث جند طمبره مع جيش الحكومة المصرية وضحت للمشرفين عليه علائم تفوقه الفكرى والعملى ومقدرته المتميزة فى اداء ما يوكل اليه من اعمال بدأت تتجاوز نطاق الواجبات العادية التى تنجز آليا .

واكتشف المدير الجديد روملبو جيسى باشا فى طمبره تلك المواهب مع كثير من الصدق والولاء فقربه إليه واستفاد منه فى استنفار الزاندى لحرب سليمان الزبير باشا مع الحكومة . وانتصر جيسى باشا على سليمان وقتله وبقى عليه ان يكافىء طمبره على عونه وإخلاصه بأن يساعده على استرداد حقه المسلوب والعوده الى سلطنته .

وعاد طمبره إلى داره التى اخرج منها بهدايا جيشى باشا من السلاح والذخيرة والمهمات والعتاد والمدربين أيضا . واستطاع طمبره بتجربة الملدوغ من جحر مرة واحدة ان يحمى نفسه وقومه حتى لا يلدغ من نفس الجحر مرتين . ولذلك نجا من غزوات امراء المهدية بعد ان انهزمت الحكومة المصرية على يد كرم الله كركساوى .

ولم يكن طمبره يخشى المغامرين العرب وأمراء المهدية وحدهم ولكنه كان على تأهب كامل ويقظة دائمة خشية من نزوات اخيه (جدى) الذى عرف بالأطماع والمكائد ومن طموح السلطان أندورما الذى يطمع فى حق طمبره ايضا .

ولكن طمبره نفسه كان ايضــا طمــوحا وطــامعا فى غيره إذ لم تكد ســلطة المهدية تنتهى ويحل محلها الحكم الثنائى الذى لم يصل بعد إلى بحر الغزال ـ حتى هجم طمبره على القبائل الواقعة شــمال منطقته وضــمها جميعــا الى سلطانته ليجعل منهم حاجزاً طبيعيا ضــد هجمــات الدينكا على الزاندى وذلك نوع من التخطيط وبعد النظر . والقبائل التى انضوت تحت لوائه هــى خليط من البلنده والبنقو والاندوقو وغيرهم وقد استغلهم استغلالا فظيعا فى منافعه ومكاسبه مثل الزراعة والصيد والحصول على سن الفيل وريش النعام لرواج سوقها التجارى فى واو والكنغو ومنقلا .

وفى عام ١٨٩٧ وصل القائد الفــرنسى مــارشان الى طمبره فى طـريقه الى النيل ، وهو صاحب احتلال منطقة فشوده وقصة اللورد كتشــنر معــه فى عام ١٨٩٨ ، وقد عقد مارشان مع السلطان طمبره وشــيد حــامية (هــوشنفر) بالقرب من قرية السلطان وهى (طابية) حصينة فى وضــع اســتراتيجى جيد بين نهر الكنغو ونهر النيل .

وكان ترحيب طمبره بالحملة الفرنسية نابعــا مــن تجــاربه مــع المصريين والانجليز اذ وجد منهم الرعاية والحماية واسترداد حقه السليب فــظل يتطلع للاوربيين طوال فترة الهلع التى عاشها ابان حكم المهــدية . ولم يخــب ظــن طمبره فى الفرنسيين لأن الكولونيل مارشات عوضــه عن العــون مــن الذره والفول السودانى والشيالين بهدايا قيمة من السلاح النارى الذى يحتاج اليه مع كثير من ادوات الموسيقى والطبل والزمر وجماعة من الفرنسيين بقوا معه ليدربوا جنده وحاشيته على استعمال السلاح والموسيقى .

ولقد كان مجــىء مــارشان والجيش الفــرنسى لدار الزاندى قبل دخــول الانجليز بعام واحد يعتبر من حسن حظ الحكومة لأن حسن معاملة مارشان لطمبره جعلته يثق ثقة لا حد لها فى الأوربيين وبخاصة لان رمالوجيين باشــا الايطالى هو الذى اطلق سراحه وارسله لاهله معــززًا بالســلاح والذخيرة ثم جاء الفرنسيون فحدث منهم ما ذكرنا ثم جــاء الانجليز فتعــاقد معهــم ضــد البلجيك وضد السلطان يامبيو وضد كل من لم يدخل فى طاعة الحــكومة وهــو يصدر من كل ذلك عن تجربة عملية آمن بها وكانت لحســن حــظه ـ ناجحــة ومحققه لآماله .

ومن ناحية اخرى فإن طمبره كان بعيد النظر وكثير العلم والخبرة بموقف من رعاياه الذين تنتمى اكثريتهم لغير قبائل الزاندى وهو لذلك يحتاج دائما الى حليف قوى يضاعف به هيبته لدى رعاياه المغلوبين على أمرهم قهرا ومما يدل على ذلك التعليق الذى كتبه اسباركس بك قائد الحملة الانجليزية لحكومته حين علق بقوله « ان طمبره واسع الذكاء ولم يحدث لى ان التقيت برجل فى بحر الغزال فى مثل قوة ذكائه ولا حتى الشيخ لمبو » ثم قال اسباركس « ان الزاندى قبيله متفوقة عقليا على كل قبائل بحر الغزال وبخاصة فى مستويات المسئولية من السلاطين والمشايخ وذوى النفوذ الادارى ايا كان حجمه » وكما حدث ان ذكرنا . فان طمبره قد وضع نفسه وجيشه تحت تصرف قوات حكومة السودان بغير قيد او شرط وبذلك يبدو كمن احتكر ولاء الحكومة واستطاع ان يقول للحكومة هذا مخلص وذلك غير مخلص فيستجاب لقوله وبذلك خشيت سطوته السلطات القبلية كلها سواء كانت من الزاندى او غير الزاندى وفوق هذا وذاك فان القبائل المستضعفة قد صارت تفضل الانضواء تحت لواء سلطته عن اللجوء الى اى سلطة قبلية اخرى لضمان حمايتها ووصايته عليها .

ومن ناحية اخرى فان طمبره لم يلق بالا الى الاستقلال الذى كان السلاطين الاخرون ينذرون عنه بالابتعاد عن الحكومة ذلك لان طمبره لم يجد من الناحية العملية تدخلا من الانجليز على استقلال حكمه ولكن علاقتهم كانت معه هو شخصيا ولذلك اعتبر الحكومة ركيزة لحمايته وجزءا من جيشه الذى يناضل به الآخرين من الطامعين وقد نجح فى ذلك كل النجاح .

إن حكومة السودان التى احتلت شمال الزاندى منذ عام ١٩٠١ عن طريق الحلف مع طمبره إنما ارادت وضع يدها على منطقة الزاندى لتتدرج بذلك للزحف على بقية جنوب الزاندى وقد تحقق لها ذلك وهو كل ما ارادت اذ لم يكن من أهدافها مشاركة السلطان طمبره فى ادارة القبيلة . وقد علم هو ـ اى طمبره ـ ببديهة الرجل الذكى كل ما كانت تريده الحكومة فاستفاد من سندها وإمداداتها من غير أن يفقد قيد انمله من سلطته على الزاندى بل بزيادة سلطته على القبائل الملحقة بسلطنته .

الفصل التاسع

بريطانيا وبلچيكا وحاجز اللادو

بريطانيا وبلچيكا وحاجز اللادو

ذكرنا فى الفصل السابق بإيجاز تعرض بحر الغزال لنشاط واسع من الغزو البلچيكى والفرنسى بعد أن انسحبت جيوش المهدية من الاقليم وتركته لمصيره مع تحركات الاستعمار الأوربى فى كل أنحاء أفـريقيا . ولكن قصـة حـاجز اللادو هذه لها اهمية كبيرة جدا فى تاريخ مديرية بحر الغزال القديمة وبخاصة لان القضية قد نوقشت فى عدة مفاوضات على مستويات عليا فى لندن وباريس وبلچيكا وبرلين وشملت الاتفاقيات دول بريطانيا وبلچيكا وفرنسا والبرتغال ومصر وكادت ان تنشب بسببها حرب ضروس بين فـرنسا وبلچيكا لا تقـف عند حدود بحر الغزال بل تنقل الحرب إلى أوربا نفسها لولا تدخل بريطـانيا ذات النفوذ الواسع آنذاك مدافعة عن حقوق الأمـلاك الخـديوية فى المناطـق الاستوائية بما جعل فرنسا تنسحب من بحـر الغـزال وامتداد النيل الأبيض حتى فشودة وما جعل بلچيكا تتعاقد برد منطقة (حـاجز اللادو) بعـد وفـاة ليوبولد الثانى ملك بلچيكا لتدخل فى حدود السودان التى كانت فى الأصل جزءاً منه قبل تمدد الطمع والطموح البلچيكى فى مستعمرة الكنغو الحرة .

ولأن قصة (حاجز اللادو) كما درسناها مـن عدة مصـادر عربية واجنبية كثيرة التعقيد وتختلف فيها الروايات بين مصدر وآخر ـ فقـد رأيت أن أثبت هنا ما جاء عنها فى كتاب (مصر والسودان) للدكتور فؤاد شـكرى عن تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسـع عشر لأنه المؤرخ الوحيد الذى عرض القضية مفصلة بالارقام والتوقيت بطـريقة تجعـل فهمهـا سـهلا وراسخا .

قال الدكتور محمد فؤاد شكرى فى كتابه (مصر والسـودان) : ـ « لم يفقـد الملك ليوبولد الثانى ملك بلچيكا الأمل فى التوسع صوب حوض النيل فقد امتد النفوذ البلچيكى فى حوض نهر الكنغو ـ ووافق مؤتمر (برلين ١٨٨٤ م) الذى نظر فى تقسيم مناطق النفـوذ بين الدول فى أفـريقيا وتنظيم الملاحـة فى نهـر الكنغو والنيجر على انشاء (ولاية الكونغو الحرة) تحت سـيادة ملك بلچيكا (ليوبولد الثانى) ووافق البرلمان البلچيكى على انشاء هذه (الولاية) تحـت سيادة الملك البلچيكى فى ابريل عام ١٨٨٥ م . ولقد شـاهدنا كيف أن ليوبولد اراد استخدام (غردون باشا) فى توسيع أملاك الكونغـو ثم انتهـاز فـرصة

ارسال (استانلى) فى حملة لانقاذ امين باشا ليضم اليه مديرية خط الاستواء . ولكن ليوبولد استطاع بعد ذلك أن يرسم حدود هذه (الولاية الحرة) الجديدة . وبعد أن نجح فى عقد طائفة من المعاهدات مع البرتغال والفرنسيين والانجليز على الوجه التالى :

« مع البرتغال : معاهدة بين البرتغال وولاية الكنغو الحرة فى ١٤ فبراير ١٨٨٥ م ثم اخرى فى ٢٥ مايو ١٨٩١ ثم ثالثة فى ٢٥ مارس ١٨٩٤ م . فاعترفت البرتغال فى شمال نهر الكنغو بتبعية حاجز (كابيندا) لولاية الكنغو كما اتصلت الولاية بالشاطىء الايسر للنهر عند (متيدا) بينما بقى كل شاطىء النهر للولاية . ومع فرنسا : ـ اتفاقية ٢٣ ابريل ١٨٨٤ م واتفاق اخر فى ٥ فبراير ١٨٨٥ م ثم معاهدة ٢٩ ابريل ١٨٨٧ م لتخطيط الحدود بين ولايتى الكنغو الحرة ومستعمرة الكونغو الفرنسى على طول مجرى (نهر الاوبانجى) فرع نهر الكنغو الغربى ثم فى ١٤ اغسطس ١٨٩٤ م . وكان البلجيكيون لتحقيق اطماعهم فى مديريتى خط الاستواء وبحر الغزال قد تجاوزوا الحدود التى رسمها اتفاق مؤتمر برلين فى نوفمبر ١٨٨٥ م ثم معاهدتهم مع فرنسا فى ٢٩ ابريل ١٨٨٧ م . فقد أرسلوا حملة بقيادة (كيرك هوفن) فى سبتمبر ١٨٩٠ م استطاعت التوغل حتى وصلت إلى النيل واحتلت (الدنلاى) فى اوائل ١٨٩٣ م كما تقدمت فى نفس الوقت حملات أخرى نحو الشمال فاحتلت عدة مراكز بين عامى ١٨٩١ م و ١٨٩٢ حتى وصلت بالقرب من (ديم زبير) فى غرب بحر الغزال عام ١٨٩٣ م ومعه حدود دار فور وحفرة النحاس فى عام ١٨٩٤ م وعلى ذلك تجاوز البلجيكيون خط عرض أربع درجات الذى تعين فى الاتفاقيات السابقة . ومدوا مراكزهم على الشاطىء الأيمن لنهر (اوله) الذى هو امتداد لنهر الأوبانجى حتى خط عرض خمس درجات . وفى معاهدة ١٤ اغسطس ١٨٩٤ م بين فرنسا وولاية الكنغو الحرة ثبتت أقدام البلجيكيين فى تلك الجهات وصار لولاية الكنغو الحرة الحق فى التوسع شمالا وشرقا مسافة أخرى وتعهدت ولاية الكنغو بعدم احتلال اية ارض فى شمال اللادو . »

ومع انجلترا :

« كانت أولى الاتفاقات معاهدة بين الكنغو الحرة وشركة (افريقيا الشرقية البريطانية) وقعت فى عام ١٨٩٠ م وعرفت باسم معاهدة (ماكينون) نسبة

لاسم السيروليم ماكنون رئيسها اعترفــت الشركة بمــوجبها بحقــوق ولاية الكنغو الحرة فى السيادة إلى الغرب من خط يمتد من الطرف الجنوبى الغربى لبحيرة البرت ويسير شمالا إلى طول النيل الأبيض إلى اللادو بينما اعترفت حكومة الكونغو الحرة بحقوق السيادة للشركة على شريط من الأرض عرضه خمسة أميال يمتد من الشــاطىء الجنوبى لبحيرة البرت ادوارد إلى الطــرف الشمالى لبحيرة تنجانيقا »

ومن المعروف أن بعض الشركات الكبرى البريطانية لما وراء البحــار كانت تمثل الامبراطورية ومصالحها فى المستعمرات كما حدث مــن اســتعمار الهند الذى بدأ بتعاقد شركات ومؤسسات تجارية قبل أن تضع الحكومة يدهــا على البلاد .

ونعود لما كتبه الدكتور محمد فؤاد شكرى عن حاجز اللادو حيث قال :
« وفى ١٢ مايو ١٨٩٤ م عقدت حكومة الكونغو الحرة أى عقــد الملك ليوبولد الثانى نفسه بوصفه صاحب السيادة الشخصية على الكونغو ـ اتفــاقا مــع بريطانيا منحت بمقتضاه لولاية الكونغو الحــرة باســم الملك ليوبولد منطقــة كبيرة من بحر الغزال تقع بين خطى ٣٠ و ٢٥ درجة شرقا وخطى عرض ١٠ و ٤ درجات شمالا وذلك ليسرى طوال حياة الملك ليوبولد الثانى . كذلك المنطقة من بحر الجبل التى تقع على الشــاطىء الأيسر للنيل مــن (مــاهاجى) على الشاطىء الغربى الشمالى لبحيرة البرت إلى فــاشودة (كدوك الآن) على أن تسترد بريطانيا هذه المناطق بعد وفاة الملك ليوبولد بست شهور . وفى مقــابل هذه الهبة الانجليزية من السودان منحت الكونغو للانجليز شريطا من الأرض من بحيرة ادوارد إلى بحيرة ـ تنجانيقا . أى مسافة درجتين ونصف تقــريبا بعرض ٢٥ كيلو مترا . وهكذا تنازلت انجلترا عن معظم اقليم بحــر الغــزال الهام وكان هناك ضباط من قــوات بلجيكية يحتلون الأوبانجــى العليا أثناء المعاهدة مع بريطانيا » .

« وقد احتجــت فــرنسا على تلك المعــاهدة الانجليزية ـ البلجيكية لأنهــا تناقضت مع الاتفاقات الدولية التى عقدت فى مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ أى قبل ذلك بعشرة أعوام وذلك بشأن تخطيط الحدود وتقرير حياد الكونغو فى قــرار برلين ١٨٨٥ م ولأن بلجيكا نفسها قد تقــرر حيادهــا فى معــاهدة لندن عام

١٨٣١ م بصورة دائمة ولأن حقوق مصر الخديوية فى تلك المناطق فى بحر الغزال وبحر الجبل ثابتة بموجب (الفرمانات) السلطانية العثمانية ومعترف بها دوليا . وقد ضغط (هانوتو) وزير خارجية فرنسا على الملك ليوبولد ليتنازل عن الهبة أو الايجار ونظم (دلكاسى) بوصفه وزير المستعمرات الفرنسية حملة بقيادة الكولونيل (مونتى) لطرد البلجيكيين اذا اقتضى الحال ذلك فاضطر ليوبولد للتسليم وانسحب الضباط البلجيكيون من الأوبانجى العليا التى فصلت من الكونغو الفرنسية وجعلت ادارة منفصلة وقائمة بذاتها . وبقيت حملة الكولونيل (مونتى) مستعدة بينما حملة أخرى بقيادة (ليوتار) لم تعرف التعليمات الصادرة اليها آنذاك ولكنها أعلنت بعد اربع سنوات عندما وجه البرنس (هنرى دولريان) خطابا مفتوحا لمسيو (دلكاس) نشرته جريدة السلطات الفرنسية فى ٢١ /١١ /١٨٩٨ جاء فيه ان الكولونيل (مونتى) الذى عين فى عام ١٨٩٤ م على رأس حملة مكلفة بالزحف من الكونغو إلى النيل الابيض سأل الحكومة أن تعهد بمهمة إلى البرنس « هنرى دولويان » هى أن يذهب البرنس عن طريق الحبشة ببعثة للالتقاء بالكولونيل (مونتى) وكان الهدف هو أن تحتل القوات الفرنسية الزاحفة (فشوده) من الشرق والغرب . »

هذا الضغط من جانب فرنسا جعل من الممكن أن تعقد فرنسا مع ولاية الكونغو الحرة اتفاقا فى ١٤ أغطس ١٨٩٤ نالت به فرنسا تعديلا للحدود لمصلحتها بين أملاكها فى افريقيا الاستوائية وولاية الكونغو البلجيكية الحرة وتعهدت الكونغو بأن تخلى فى اقرب وقت الاماكن أو المراكز التى كانت تعوق تقدم الزحف الفرنسى وهى فى حفرة النحاس ورفادى وزيميو وتنازلت عن احتلال اقليم بحر الغزال وتعهدت فرنسا فى نظير ذلك بعدم معارضة الملك ليوبولد فى احتلال منطقة (حاجز اللادو) بالايجار حسب نصوص المعاهدة الانجليزية البلجيكية فى ١٢ مايو ١٨٩٤ م . وبمقتضى اتفاق آخر فى ٥ فبراير ١٨٩٥ فى باريس اعترفت الكونغو لفرنسا بحق الاتفاق على الأملاك البلجيكية فى حالة التنازل عن هذه الأملاك للغير علاوة على أنها تعهدت فى الوقت نفسه بعدم التنازل للغير دون مقابل عن كل أو جزء من أملاكها هذه اى ولاية الكونغو الحرة البلجيكية ـ وذلك لمناسبة انتقال ولاية الكونغو الحرة إلى دولة بلجيكا فى ٩ يناير ١٨٩٥ . »

اما المعــاهدة الانجليزية البلجيكية فى ١٢ مــايو ١٨٩٤ فهــى التى خلقــت ماصار يعرف باسم حاجز اللادو "Lado Enclave" ويمضى الدكتور ليختم بحثه بتلخيص بسيط لنتائج كل تلك الاتفاقات التى تاثر بها الســودان فى اقليمــى بحر الغزال وبحر الجبل وكان يتاثر بهــا شــمالا فى النيل عند ملتقــاه بنهــر سوباط لولا ان الصدف هى التى جعلت الفتح الثنائى بقيادة كتشنر قد جاءت فى نفس توقيت الزحف الفــرنسى واحتلال (فشــوده) وقصــة مفــاوضات (كتشنر ـ مارشان) المعروفه فى ١٨٩٨

وقد نقل الدكتور شكرى تلخيصه عن (ارثر سلفيا هوابت) الذى قال :ـ
« ان الاثر المجتمع من كل هذه الترتيبات انما هــو اعطــاء ولاية الكونغــو الحــرة منفــذا على النيل الاعلى بين مــا هــاجى على بحيرة البرت واللادو بموجب ايجار (عقد حكر) يستمر طــوال حياة الملك ليوبولد على ان ينتهــى العمل بهذا الايجار بعد ذلك الا فيما يخص المنطقــة التى تبلغ مســاحتها ٢٥ كيلو مترا عند ما هاجى . امــا بقية الاقليم فقــد تركت ضــمن دائرة النفــوذ البريطانى » .

وفى ١٦ يولية ١٨٩٨ احتل القومندان هنرى منطقة اللادو باســم الكونغــو الحرة وفى نفس الوقت احتل القومندان شالتان جبل الرجاف بعد اشتباك مع الامير عربى دفع الله عامل الخليفة عبد الله على بحــر الجبل وانهــزم الامير عربى فانسحب إلى بور بينما واحتل البلجيكيون الرجــاف . وفى يونيه١٨٩٨ دعم شالتان احتلاله للرجاف ولم يكن البلجيكيون قد احتلوا منطقة اللادو قبل ذلك . اما الدافع لاحتلال الرجاف فهــو حــادث فشــودة الذى نشــأ باحتلال الكولونيل مارشان لها . »

هذا ما أردنا أن ننقله من كتاب (مصر والســودان) للدكتور محمــد فــؤاد شكرى لما حواه من ذكر لجميع المعاهدات والاتفاقيات بين الدول الاستعمارية التى احتلت أفريقيا فى القرن التاســع عشر وبخــاصة بين انجلترا وفــرنسا وبلجيكا والبرتغال لصلتهم بالموضوع الذى نؤرخ له .

اما اقتطاع اقليم اللادو لبلجيكا سواء بالايجار او الهبة مــن بريطــانيا فى حين انه لم يكن من املاكها بل من الاملاك الخديوية فــانه بمــوجب اتفــاقية

اخرى عقدت بلندن فى ٩ مايو ١٩٠٦ قد أعيد للسودان فى ١٦ يونيه ١٩١٠ اى بعد وفاة الملك ليوبولد بستة اشهر كما نصت المعاهدة الاولى .

وبذلك عادت منطقة الزاندى لبحر الغـزال وكل منطقـة غرب الاستوائية بما فيها العاصمة جوبا وقـد كانت رئاسـة الاستوائية حتى عام ١٩٣٠ فى منجلا وكانت المديرية تسمى « مديرية منجلا » وليس الاستوائية .

الفصل العاشر

بعثات التبشير المسيحى

بعثات التبشير المسيحى

لا يمكن الحديث عن التبشير المسيحى فى بحر الغزال منفصلا ومستقلا عنه فى بقية المديريات الجنوبية وفى السودان الشمالى ايضــا . ولكننا ســنركز فى نهاية هذا الفصل على نشاط التبشير المسيحى فى بحر الغزال بالذات .

قبيل منتصف القرن التاسع عشر او فى عام ١٨٤٦ على التحديد اعلن البابا قريقورى السادس عشر فى الفاتيكان تكوين جهاز رسولى كاثوليكى للتبشير بالدين المسيحى فى وسط افريقيا الذى يشتمل على السودان الجنوبى ضــمن مناطق يوغندا والكونغو ونيجيريا وغيرها .

واسرعت بعوث الارساليات إلى أعالى النيل والاستوائية مدفوعة باغراءات الأرض البكر والعقول العذراء لتفهم الرســالات الســماوية قبل أن يســبقهم اليها دعاة التبشير بالرسالة الاسلامية المحمدية او دعاة الرسالة المســيحية البروتستانتية التى كانت ايضا تتأهب للغزو الأفريقى .

وكان من تخطيط البعــوث الكاثوليكية ان لا تعمــل فى المناطــق التى وجــد الاسلام طريقه إليهــا بل تحتضــن ارض الجنوب وراء الســدود حيث يعيش الناس على الوثنية والعقائد المحلية القبلية وحدها .

وجــاءت البعثة التبشــيرية الأولى حـــوالى ١٨٥٠ بقيادة القس « اقناز بوبلتشر » واستطلعوا الأرض حتى قندكرو فى الاستوائية حيث اســتقر الأب « انجيلو فنكو » ليراود قبيلة الباريه ويبث بينهـــم العقيدة ومســـتلزمات الانتساب المسيحى من عمل وسلوك .

وبعثة أخرى استقرت على بعد مائة وخمسين ميلا إلى الشمال مــن جنوب الاستوائية ولكن القسس الذين واجهوا مناخا لم يألفوه ولم يناسب صحتهم قد ماتوا الواحد بعد الآخر بالملاريا والرطوبة وغيرها وتبعا لذلك تعطل العمل التبشيرى فى الاســتوائية ولكن بعض الرهبان الفــرنسيين دخلوا فى تجــربة القيام بتبشير فى دار الشلك بأعالى النيل عام ١٨٦١ ولكنهم أيضــا لم يلبثوا أن غادروا الاقليم لعدم تناسب الجــو مــع صــحتهم ولأن الشــلك قبيلة ذات طقوس موروثة ومقدسة لا يتحولون عنها بسهولة .

ومضت حقبة سنوات عشر ثم ظهر في عام ١٨٧١ الاب « دانيلى كومبونى »[١] الذى رأى ـ فرارا من قسوة الطقس وضعف مقاومة الاوربيين ـ ان يعيد البعثة الرسولية الكاثوليكية في اقليم جبال النوبة . ولم تنتعش الدعوة الكاثوليكية في أعالى النيل بعد اندحار دولة المهدية الاسلامية في ١٨٩٨ م .

وكانت الدعوة المسيحية ابان المهدية تعمل بطريقة « حكومات المنفى »بالتعبير الحديث برئاسة القاصد الرسولى المطران سوقارو الذى استبدل في عام ١٨٩٥ بالقس الاب انتونيو روفيقيو ولكن بقدر ما كان المطران سوقارو محبوبا وناجحا من الناحية الاجتماعية مع الناس كان خلفه انتونيو منعزلا وفاشلا فيما يؤدى من عمل لبعده وانطوائه عن الناس .

ومع الحكم الثنائى :

وفي ١٨٩٨ م وعقب انتصار لورد كتشنر مباشرة في معركة كررى ضد الخليفة عبد الله عاد إلى لندن وحاول جهده أن يستبدل الارساليات التبشيرية النمسوية بارساليات بريطانية محضة فلم ينجح ولكن امبراطور النمسا فرنسيس جوزيف نجح في إعادة رسل الكنيسة النمساوية[٢] للسودان واستشاط كتشنر غضبا واعلن الحرب الباردة على مبعوثى النمسا وحرمهم من امتيازات كثيرة كانوا يأملون في الحصول عليها . وفي عام ١٨٩٩ وصل إلى الخرطوم الاب اوهلو الدر الذى كان معتقلا بسجن الخليفة لعشر سنوات وهرب إلى مصر عام ١٨٩٢ وأصدر كتابا ضد الخليفة وضد السودان كله اسماه « عشر سنوات في أسر المهدى » ـ وصل الخرطوم ليصلح الحال بين الكنيسة والحكام البريطانيين ويعيد إلى منطقة جبال النوبة سابق نفوذ الكنيسة فيها ولكن ما حدث كان خيبة امل للاب ولكنيسته لان الحكومة حددت اقامته بالخرطوم ثم أعادته إلى بودابست من غير تحقيق لأى غرض أو هدف .

وبعد وفاة البشوب رفيقيو عام ١٩٠٣ حل محله البشوب « فرانزاكس جير » وكان رجلا زكيا وحصيفا استطاع أن يكسب ود السير ونجت باشا

---

(١) اطلق اسمه على مدارس كمبونى الكاثوليكية تخليدا لذكراه

(٢) كانت الكنيسة النمساوية تعمل في الخرطوم والجبال إبان الحكم المصرى الاول وحتى مقتل غردون .

ومن معه من الانجليز بسرعة وأن يفتح للنشاط الكاثوليكى مجالا جـديدا فى جنوب السودان .

وفيما يختص بتبشير الكنيسة الانجليزية على المذهب البروتسـتانتى لابد ان نعـود إلى الوراء قليلا لنذكر أن الجنرال غردون الذى كان حـاكم الاقليم الجنوبى قــد شــجع البعثة الانجليزية الدينية فى عام ١٨٧٨ م ان تؤسس كنائس انجليزية على شواطىء أعالى النيل عندما كانت فى طريقها إلى يوغندا وقد ابطـات الكنيسـة الانجليزية فى تلبية طلب غردون باشـا رغم إلحـاحه وعرضه لشتى المساعدات للكنيسة . ويبدو ان اكبر مساعدة أو مساهمة مـن غردون باشا فيما بعد قد كانت قتل غردون نفسه على يد المهـدى فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ م اذ لم تمض اسابيع على ذلك الحدث الذى هز ارجاء بريطـانيا حتى اجتمع عدد ضخم من سراة الانجليز ووضعوا بضعة الاف من الجنيهات فى يد الكنيسة الانجليزية لتنشىء مؤسسات دينية تبشيرية فى السـودان على ذكرى الجنرال تشارلس غردون باشا متى انتهت سيطرة المهدية على السودان . وفى هذا التخطيط تهمة لبريطانيا بالنية المبيتة لاحتلال السودان فيما بعد .

ومن الواضح أن المتبرعين من الانجليز قد اقدموا على تبرعاتهم بدافع مـن الرغبة فى هداية شعب عنيد وعنيف ومتعصب دينيا لدرجة البطش والفتك حتى بالذين جاءوا لينشروا بينهم الحضارة والوعى الانسانى والسـلوك البشرى الصحيح مثل غردون باشـا . ونسـوا أن ثورة المهـدية التى اتخـذت الدعوة الدينية أساسا قد كانت من ناحية اخرى ثورة وطنية تريد اسـتقلال بلادهـا وجلاء الحكم الاجنبى بدليل أن المهدى فى منشـوراته مـع غردون باشـا قـد نصحه بأن يغادر البلاد وكفل له كل أسباب السلامة[1] ولكن غردون باشا قد استهان بأمر المهدى وأمر الدعوة الاسلامية كلها فلقى المصير المحتوم .

وكان مقتل الجنرال غردون فى الخرطوم على يد ثورة دينية اسـلامية بمثابة الشرارة الأولى التى الهبت نار النشاط المستعر فى الكنيسة الانجليزية فبدأت بارسال بعثة يراسها الميجور جنرال هيج إلى سـواكن التى لم تسـقط فى يد المهدى ليستطلع ويقرر ما اذا كان مـن الممـكن القيام بتبشـير مسـيحى بروتستانتى فى الميناء المحصنة « سواكن » كذكرى لمقتل غردون باشـا . ولكن

---

(١) منشورات الامام المهدى للجنرال غردون من الأبيض

البعثة لم تجد سبيلا لقبول الفكرة فى بلدة صغيرة يحاصرها عثمان دقنة من كل الجهات ما عدا البحر وسكانها جميعا مسلمون متعصبون بنفس مستوى الانصار ولكنهم يتبعون قيادة دينية أخرى[1].

لم تكد المهدية تسقط فى يد اللورد كتشنر فى الثالث من سبتمبر ١٨٩٨ حتى وصلت تعليمات من لندن للدكتور هارير مدير الكنيسة الانجليزية فى مصر لاستطلاع الاحوال فى الخرطوم وايجاد الوسائل التى يفتتح بها مركز تبشير مسيحى على ذكرى الجنرال غردون فى الخرطوم .

ولكن الدكتور هارير الذى كان أقرب لمسارح الأحداث قد طرح الأمر امام اللورد كرومر مندوب بريطانيا السامى لمصر والسودان الذى استشار لورد كتشنر ثم قرر رفض طلب الكنيسة فى السودان وقد كان اللورد كتشنر اكثر عنادا فى رفض أى تبشير بين القبائل والمجموعات المسلمة لان ذلك يؤكد للناس ان الحكومة قد فتحت السودان لتحول الناس عن دينهم إلى العقيدة المسيحية .

ولم يمانع كرومر وكتشنر فى اقامة مراكز التبشير بالجنوب الوثنى الذى يستحق خدمات الكنيسة العقائدية والانسانية ووافقت لجنة الكنيسة العليا فى بريطانيا على العمل فى الجنوب ولكن بغير تحمس واندفاع فأنشىء المركز التبشيرى فى « فشوده »[2] باعتبار انها اقرب المناطق الوثنية للمناطق الاسلامية .

ومع ذلك فان جمعية الارساليات الانجليزية لم تكف عن السعى والالحاح لاقامة مراكز بشمال السودان لانه يمثل المكان المناسب لذكرى غردون . واجتمعت لجنة الكنيسة العليا فى فبراير ١٨٩٩ برئاسة السير جون كناواى فى « كنتربارى » واتخذت قرارات كان تنفيذها حملة عارمة على اللورد كرومر ولورد كتشنر ووزارة الخارجية لعرقلة انتشار رسالة الكنيسة ومقاومة الحرية الدينية باسم السياسة وتملق الشعوب المختلفة .

وقد كانت الملكة فكتوريا وبلاطها ومعظم اللوردات يساندون الكنيسة من وراء ستار ولكن كرومر العنيد الجبار لم يأبه لذلك لان الاستقرار لم يحدث

---

(١) الارتيقة وقبائل البجه يتبعون الطريقة الختمية وقد رفض السيد محمد عثمان المرغنى مبايعة المهدية وهاجر إلى مصر .

(٢) اسمها الآن « كدوك » وكانت عاصمة أعالى النيل فى الحكم المصرى الأول والمهدية وحقبة من الحكم الثنائى ثم نقلت العاصمة لملكال على الضفة الشرقية .

بالسودان والخليفة عبد الله وجيوب المهدية لم يمكن الخـلاص منهـا الا بعـد موقعة أم دبيكرات في نوفمبر ١٨٩٩ .

ومع يأس الكنيسة من اقناع اللورد كرومر سنحت فرصة اعلان كتشنر بأن السودان مفتوح للتجارة الخـارجية فتقـدمت الارسـاليات الانجليزية بطلب لاقامة مستشفى انجليزى ،[1] في موقع مناسـب بالخـرطوم ليعـالج المرضى الفقراء على اعتبار أن العلاج لا يعتبر تبشيرا أو تدخلا من الانجليز في عقائد المسلمين وقد يعتبر المستشفى مؤسسة ذات صبغة تجارية وانسانية معا .

وبعد مقتل الخليفة وقبيل تخلى اللورد كتشنر عن مركزه بالسودان ليلتحـق بحرب البوير في جنوب أفريقيا سمح للارساليات المسيحية أن تجتمـع معـه بالخرطوم بشرط أن لا يطمعوا في قيام تبشير في ارض اسلامية بالسودان لأن ذلك ينزع الثقة من الحكومة والحاكمين . ولم يمض وقت طـويل حتى وصـل الخرطوم « الدكتور هـارير » الذى تحـدثنا عنه والاب « لويلين قـوين » ولم يتأخر البشوب « روفيقيو » طويلا عن اللحاق بهما .

وجاء السير ريجنلد ونجت باشا Regnold Wingate :

وانتهى عهد كتشنر القصير وتولى حكم السودان السير رجنلد ونجت باشا منذ نهاية ١٨٩٩ فاستبشرت الكنيسة الانجليزية بونجت لأنه مسـيحى ملتزم ومن اعضـاء الكنيسـة هـو واباؤه وكذلك كان كل كبار الاداريين والموظفين الانجليز في السودان من اتباع المذهب البرتستانتى ماعدا السـير سـلاطين باشا والسير ادجار برنارد السـكرتير المالى فقـد كانا مـن اتباع المذهـب الكاثوليكى .

ولكن السير ونجت باشا الذى بحث أمر التبشـير مـع مـديرى المديريات الشمالية والجنوبية كتب لرئاسة الارساليات المسيحية يقول :

« انني في هذه البلاد أعمـل ممثلا لجـلالة ملكة بريطـانيا وخـديوى مصر وواجباتى الرسـمية تتمثل في صـيانة الامـن وتجنب مـا يؤدى إلى زعزعته والمحافظة على التوازن والعـدالة بين سـكان القـطر بصرف النظـر عن معتقداتهم الاسلامية والمسيحية » .

---

(١) المستشفى الانجليزى الواقع شمال قبة الشيخ دفع الله بام درمان ويسمى الآن مستشفى التجانى الماحى

وتأييدا لموقف السير ونجت باشا مـن التبشـير فى السـودان اعلن اللورد سـالسبرى رئيس وزراء بريطـانيا فى يونيه ١٩٠٠ بيانا يسـاند حـكومة السودان فى سياستها ويحذر الكنيسة من محـاولة التبشـير فى اى مجتمع اسلامى فى السودان لان نجاح ارتداد المسلم عن عقيدته لا يحـدث الا بنسبة ضئيلة جدا اما احتمال حدوث رد الفعل على الامن والسـلام فسـيكون كبيرا وخطيرا وبخاصة لان السودان محكوم بدولتين احداهما اسلامية وهى مصر واى نشاط ضد عقيدة المسلمين فى السودان سوف يواجه بزوابع من المقاومة لا تؤمن عواقبها فى مصر والسودان .

وقد أثار بيان رئيس حكومة بريطانيا ثائرة الكنيسـة هنا وفى لندن فـكتب البيشوب قوين محتجا :

« ان للسلطات الحق ان توجه التبشير فى اى مكان للطريقة المثلى التى يجب أن تتخذ لتفادى العنف ومحـاولات الاقناع بغير الوسـائل الحـكيمة . ولكن ما حدث من اللورد كرومر اثناء زيارته الاخيرة للسـودان مـن اعلان للناس بأنه لا يمكن قيام تبشير مسيحى هنا ـ وما حدث من اللورد سالسبورى الذى جعل كل همه ان يحذرنا من التبشـير وأن نبتعـد عن مباشرته فى السـودان خوفا ورعبا من فئات قليلة متعصبة للاسلام فى مصر وهى تود لو أمـكنها ان تقذف بالحكم البريطانى إلى البحر بقدر ما تقذف بالارساليات المسيحية إلى الجحيم ـ هذا الذى حدث منهما غير كريم وغير رشيد .

« ان اللورد كرومر يعلم باننا نسير فى طـريقنا إلى الوثنيين لنرشـدهم إلى دور يلعبه اللورد لوقف مسيرتنا سيرتد فى يوم مـن الايام خـزيا وعارا على بريطانيا . واذا كان اللورد ورئيسه وغيرهم يظنون ان الاسـتعمار وحسـن الادارة وحدهما سيرفعان السودان واهله مـن وحـدتهم فـانهم جميعـا مخطئون » .

هذا مثال بسيط للنزاع الذى احتدم بين حكومة لندن والسودان من جـانب وبين رئاسة الكنيسة الانجليزية فى لندن والبشون قوين مندوبهم لافريقيا من الجانب الاخر .

ومع هذا الموقف المتشدد من السير ونجت ضد التبشير فانه قد أباح لكل الارساليات التبشيرية المسيحية العمل بيد مطلقة فى اى اقليم غير اسلامى . ولأن بعثات التبشير متعددة فقد قسم السير ونجت جنوب السودان إلى مناطق نفوذ بالنسبة للتبشير كما سن لهم قانونا وشروطا سنذكرها هنا .

مناطق النفوذ :

(١) بعثة الكنيسة الكاثوليكية النمساوية ـ منحت المنطقة الواقعة غرب النيل الأبيض وتشتمل على مناطق الشلك وبحر الغزال بما فيه من أقاليم غرب النوير .

(٢) البعثة الامريكية التبشيرية ـ منحت منطقة شرق أعالى النيل وشواطىء نهر سوباط ووادى الزراف .

(٣) الجمعية الانجليكانية المسيحية ـ منحت منطقة بحر الجبل ومنطقة ما بين حدود الكنيسة النمساوية والامريكانية .

وهناك منطقة اقليم اللادو التى اعيدت للادارة السودانية فى عام ١٩١٠ فقد طلب كل من الانجليز والنمساويين اضافتها اليهم ولكن السير ونجت الذى اقتنع بنشاط النمساويين قد منحهم المنطقة الجديدة البكر وعوض الجمعية الانجليكانية باضافة اقليم كبير فى دار الزاندى يضاف الى مناطق نفوذهم التبشيرى .

وفى نفس الوقت وافق ونجت باشا على إعادة فتح كنيسة الدلنج فى جبال النوبة بواسطة الكنيسة النمساوية التى كانت تمارس العمل فيها قبل المهدية التى قفلتها واعتقلت أعضاءها وبينهم الاب أوهلواردر الذى اشرنا اليه من قبل . ولكن الدلنج التى تحيط بها البيئات الاسلامية العربية من جهات عدة لم تصلح لمدى طويل كقاعدة تبشير مسيحى فتحركت البعثات الارسالية نفسها إلى أعمال منطقة الجبال فى اقليم كادوقلى والمورو وهيبان وكوده وعبرى.

ومع ان الحكومة قد أباحت التبشير المسيحى فى جنوب السودان للارساليات الانجليزية والامريكية والنمساوية كما ذكرنا ـ فانها بتوصية من اللورد كرومر فى ديسمبر ١٩٠٤ قد وضعت شروطا الزمت جميع الكنائس باتباعها وجعلت مخالفة تلك الشروط عذرا بوقف نشاط الارسالية التى ترتكبها والشروط هى :

١ ـ غير مسموح لأى بعثة تبشيرية ان تمارس عملها شمال خط عرض ١٠

٢ ـ في الاقليم الجنوبي يكون توزيع مناطق النفوذ كالآتي :[1]

(أ) البعثة المسيحية الانجليزية

منطقة بحر الجبل وهى تمتد إلى الحدود مع الكنغو الحره ويوغندا .

(ب) البعثة المسيحية النمساوية الكاثوليكية

اقليم الشلك وكل اقليم بحر الغزال ممتدا إلى منطقة اندوروما على وادى نهر الكنغو .

(ج) البعثة المسيحية الامريكية

كل مناطق نهر سوباط حتى حدود اثيوبيا ثم وادى نهر الزراف .

٣ ـ قد سمح للبعثات المسيحية بدخول السودان والعمل فيه تحت الشروط الآتية :

(أ) كل أعضاء الكنائس يجب ان يخضعوا للنظم والقوانين التي تصدرها الحكومة .

(ب) كل بعثة أو إرسالية تعتبر وحدة قائمة بذاتها وتخضع لرئيسها المحلى في السودان .

(جـ) كل رؤساء واعضاء البعثات المسيحية سيعملون بتصديق وتوصية من حاكم عام السودان وبتوافق مع لوائح السلطات المحلية التي تمثل الحكومة في المديريات والمراكز .

٤ ـ يمكن للبعثات المسيحية التبشيرية ان تمتلك ارض حكومية لأغراض التبشير الديني ورسالة البعثة على اساس الشروط الآتية :

تسجل الأرض بالحكر لمدة ثمانين عاما بثمن إسمي هو واحد جنيه عن كل الأرض ـ والتسجيل قابل للتجديد ما لم يكن هنالك اخلال من جانب المحتكر بشروط الامتلاك الاحتكارى .

---

(١) ذكرنا ذكر مناطق النفوذ لانها هنا جاءت جزءا من قانون اللورد كرومر عام ١٩٠٤ وشروطه للنشاط المسيحي .

٥ ـ لا يسمح للبعثات الدينية المسيحية بالتجـارة ولكن هـذا الشرط لا يمنع القيام بعملية المقايضة بالسلع مـع الأهـالى اذا كان للكنيسـة نتاج زراعى او صناعى يصلح للمبادلة بسلع اخرى[١].

٦ ـ لا يسمح لرجال الكنيسة أن يعملوا كوسـطاء بين الحـكومة والأهـالى ولا يحملوا شكاواهم إلى جهات الاختصاص ولا يقترحوا عمل اشـياء نيابة عن سكان المنطقة[٢].

وفى بحر الغزال بالذات :

لم تكن سلطات الكنيسة الرومـانية الكاثوليكية فى رئاسـتها لدى البابا وفى السودان راضية عن نظام تحديد مناطق النفوذ التبشيرى وقد كافحت لاطلاق يدها حرة فى بث الدعوة المسيحية بين الوثنيين .

ومع ذلك فان الكاثوليك كانوا سابقين لغيرهـم مـن البعثات المسـيحية فى انشاء كنائس ومراكز تبشير إذ اقاموا فى عام ١٩٠٠ اول كنيسـة فى منطقـة الشلك فى (لول) . وبعد وفاة الاب (روفيجيو) عين الاب (جبير) وهو رجـل متفتح الذهن وواسع الافق فخطط لبناء كنائس فى بحر الغزال .

والواقع ان فكرة انشاء مركز مسيحى فى بحر الغزال قد طرحت عام ١٩٠٣ بواسطة الكابتن اسـتاك[٣] بعـد ان نجـح فى حملة تاديب الدينكا اقـار بين شنامبى ورمبيك التى ذكرناها فى مكان آخر .

وقرر الاب جبير ان يشـيد اول كنيسـة كاثوليكية فى (كاينقـو) منطقـة (القولو) على بعد خمس وثلاثين ميلا شمال غرب واو ثم كنيسـة (امبيلى) بمنطقة (الجور) على بعد ثمـانى عشر ميلا إلى الجنوب الشرقـى مـن واو بطريقة التونج وبالقـرب مـن قـرية (دود اكوت) زعيم قبيلة الجـور فى عام ١٩٠٣ .

وفى عام ١٩٠٥ عاد الاب « جبير » إلى واو ليجد ان ميجور باولنويز مـدير بحر الغزال قد شيد فى واو مدرسة صـناعية لتدريب الأولاد على الصـناعات المحلية والنجـارة والبناء ولكن المدرسـة ـ على خـلاف مـا ارادت البعثة المسيحية ـ قد امتلات بأبناء جنود الوحدات العسـكرية السـودانيين وابناء

---

(١) هذا البند لم يطبق عمليا (٢) وهذا ايضا لم يطبق عمليا

(٣) السير لى استاك باشا الذى صار حاكما عاما للسودان ١٩١٦ إلى ١٩٢٤ وقتل فى القاهرة فى نوفمبر ١٩٢٤

جنود الريف والجلابة من المسلمين . وترامى الخبر إلى ونجت باشا ف الخرطوم فأمر الاب (جيير) باستلام المدرسة لتديرها الكنيسة وتجعلها بقدر الامكان وقفا على ابناء الوثنيين من المواطنين ليسهل تحويلهم إلى العقيدة المسيحية وليعلموا اللغة الانجليزية بدلا من العربية التى سادت آنذاك .

وفى عام ١٩٠٦ ـ وبعد استتباب الأمر للحكومة فى دار الزاندى . افتتح البيشوب (جيير) مركزا للتبشير فى طمبره ولكنه بمرور الزمن ثبت ان نجاح تلك الارساليات كان ضئيلا جدا وبخاصة بالنسبة للكاثوليك لان الجور تمردوا عليهم فى « امبيلى » وفى « كيانقو » حيث وصل الأمر إلى مرحلة العداء مع قبيلة القولو وزعيمهم الذى اتهم بمحاولة اغتيال أحد القسس الاجانب . ونفس الفشل بالنسبة للكاثوليك قد حدث فى أعالى النيل حيث ناصبهم رث الشلك العداء بصورة مكشوفة اضطرت الحكومة للتدخل بين الكنيسة والاهالى . ولكن القسس الذين تمرسوا على الصبر واحتمال المعاناة لاتمام رسالتهم لم يفت فى عضدهم كل ما حدث ومضوا فى طريقهم من غير يأس أو ضجر .

وظلت منطقة الزاندى ذات اهمية خاصة للكاثوليك ولكنهم لم يتغلبوا على الصعاب التى اعترضتهم ففتحوا مراكز تبشير وكنائس فى منطقة ركتا وبامبيو بسبب الصراع مع البيشوب « قوين » رئيس الكنيسة الانجليزية التى نافست الكاثوليك بشراسة فى الزاندى وفى الاقليم الذى تسلم مؤخرا من البلجيك للسودان وهو (اللادو) فى عام ١٩١٠ .

وبينما كانت كنائس الكاثوليك تتساقط فشلا الواحدة بعد الأخرى فى بحر الغزال كانت الارسالية الأمريكانية تعمل فى صمت وتؤده وصبر فى منطقة شرق النيل وسوباط مركزة على نجاح المركز التبشيرى فى « دوليب جمل » جوب ملكال ومتخذة منه مركز اشعاع للمناطق الأخرى .

الارساليات المسيحية والتعليم :

كان التعليم فى المديريات الجنوبية حتى عام ١٩٢٦ تحت اشراف الارساليات المسيحية . وقد خشيت الحكومة أن تتحمل مسئولية التعليم فى الجنوب لسببين أحدهما واهمهما هو عجز الحكومة المادى عن نفقات التعليم والثانى هو خشية الحكومة من نفوذ الاسلام بين الوثنيين اذ لا يمكن أن

جاهل ضرورة التعليم الدينى الاسلامى لان مصر شريكة فى الحكم الثنائى لان مناهج التعليم فى بداية الحكم الثنائى كانت كلها بيد المصريين وحدهم .

وبذلك فقد اغدقت الحكومة على الارساليات التبشيرية بكل أنواع التشجيع العون والمساندة لتفتح المدارس الاولية ومدارس التدريب الصناعى وبدأت مئة الارسالية الكاثوليكية النمساوية بفتح اربع مدارس فى مديرية بحر لغزال واثنين فى أعالى النيل .

أما الكنيسة الانجليزية فقد افتتحت أول مدرسة لها فى « ماليك » جنوب بور بيضعة أميال فى عام ١٩٠٦ ثم افتتحت مدرسة اخرى فى بور عام ١٩١٥ ومن ناحية اخرى فقد قام المبشرون الامريكيون بفتح مدرسة « دوليب هل » جنوب ملكال فى عام ١٩٠٢ .

ومن حيث التقويم العام فان التقارير الحكومية اثبتت أن مدارس الكاثوليك فى بحر الغزال واعالى النيل هى الوحيدة التى سارت على مناهج تعليمية مقبولة وناجحة وبذلك صار مدرسوها تابعين لمصلحة المعارف من حيث مرتباتهم ونفقاتهم الاخرى .

وفى تقرير عن التعليم حدد مدير مديرية بحر الغزال أهداف الحكومة من التعليم فى هذه الفترة :

« لا تريد الحكومة أن تزيد عدد المسلمين ولكنها تود أن يكتسب السكان تدريبا مهنيا مدرسيا عن طريق لغتهم المحلية مع تعليم اللغة الانجليزية ولن تقحم المسلمين على تعليم مسيحى فى المدارس الا برضاء أولياء امور الاطفال عن ذلك[1] » (ومدربة) فى بحر الغزال التى كانت هدفا من أهداف بلجيكا الاستعمارية وبخاصة منطقة الزاندى .

وعندما تم جلاء القوات البلجيكية عن منطقة اللادو وبعد وفاة الملك ليوبولد الثانى فى عام ١٩١٠ خلا الجو للبعثات الارسالية فى المديرية الاستوائية وبحر الغزال بترحيل كثير من الجنود المصريين والشماليين إلى شمال السودان واعيد تكوين الاورطة الاستوائية بتجنيد كثير من أبناء المديريتين .

ومن ذلك التاريخ ايضا اعادت حكومة السودان « الانجليز » النظر فى رسم سياسة خاصة بالجنوب روعى فيها تحويل كل الوثنيين إلى العقيدة

---

(١) من كتاب « السودان تحت ونجت » صفحة ١٢١ للمؤرخ جبيرل وار بيرج

المسيحية . وقد انتهزت الحكومة فرصة توتر العلاقات بالرواسب القديمة بين الشماليين وقبائل الجنوب والتى تكونت عبر الزمان من الحكم التركى المصرى القديم إلى حكم المهدية وقسوة المعاملة التى وجدها الجنوبيون فى العهدين ـ انتهزت الفرصة لتنتهج سياسة انفصالية عن الشمال بقدر الامكان بدعوى حماية الجنوب من تغول الشمال .

وبما أن اللغة العربية كانت فى بداية الحكم الثنائى بمثابة اللغة الرسمية المستعملة للمكاتبات وللمخاطبات فان مهمة تحويل المواطنين عن الاتجاه العربى كانت عسيرة على البعثات المسيحية ومدارس التبشير فى بحر الغزال بالذات ولذلك فان ونجت باشا حاكم السودان العام الذى أدرك تلك الحقيقة قد امر على الفور باعتبار اللغة الانجليزية شبه رسمية وضرورة توسيع تعليمها فى كل المدارس وتعميم التخاطب بالانجليزية حيثما كان ذلك ممكنا على أن لا يعلن عن ذلك ولا تسلط عليه الأضواء خشية من مقاومة مصر والمصريين المشتركين آنذاك فى الحكم معهم .

ولكى يزيد ترسيخ الدعوة المسيحية فى أذهان المواطنين الوثنيين فقد أمر السير ونجت باشا بان تكون العطلة الاسبوعية فى يوم الاحد بدلا من يوم الجمعة بالنسبة لمديريتى بحر الغزال ومنقلا .

وقد جاء فى تبرير السير ونجت باشا للعطلة وتعميم الانجليزية قوله بالحرف :

« يجب علينا أن لا ننسى بان الاغلبية المطلقة لسكان مديريتى بحر الغزال ومنقلا ليسو بمسلمين وان جيرانهم فى يوغندا قد تقبلوا العقيدة المسيحية من غير تردد وبدون قيام عقبات . كما أن اللغة الانجليزية اسهل بكثير فى تعلمها من اللغة العربية » .

ومن الأسباب التى وقفت عقبة فى تقدم البعثات الارسالية فى بداية الحكم الثنائى ببحر الغزال وجود الوحدات العسكرية المصرية والسودانية الشمالية بواو ومراكز المديرية الأخرى لأن المناوشات بين حكومة السودان والبلجيك فى الكنغو ومنطقة اللادو كانت تستدعى وجود قوات مسلحة .

واخيرا يجب ان نتذكر بان هذه النبذة عن التبشير المسيحى لم تشمل ذكر كل البعثات المسيحية والرواد الأوائل من الامريكيين والألمان والنمساويين الذين غامروا فى المناطق الاستوائية وقد مات كثير منهم برداءة الجو والملاريا وغيرهما .

الفصل الحادى عشر

قبائل بحر الغزال

قبائل بحر الغزال

ليس من اختصاص هذا الكتاب أن يتوغل فى تفاصيل سرد قبائل بحر الغزال وعلاقاتها وخصوماتها مع بعضها البعض ، ولكنه ـ أى الكتاب ـ قد اقتصر على تسجيل الأحداث الهامة التى تطور بها الاقليم من حال إلى احوال اخرى عبر المراحل التاريخية التى تعاقبت عليه منذ أن بدأ النشاط الاستعمارى والتبشيرى فى أفريقيا السوداء .

والاقليم بحدوده الجغرافية حسبما جاء فى مقدمة الكتاب هو مديرية بحر الغزال القديمة قبل أن تقتطع منها منطقة الزاندى فى عام ١٩٣٥ وتضم إلى المديرية الاستوائية وبطبيعة الحال ـ قبل التقسيم الحديث الذى قامت به ثورة مايو فجعلت الاقليم مديريتين هما بحر الغزال والبحيرات .

ولهذا فان القبائل التى نذكرها هنا تمثل مديرية بحر الغزال قبل عام ١٩٣٥ . وارجو أن لا يغيب عن الأذهان أن القبائل الكبيرة تنقسم فى العادة كما هو الحال فى شمال السودان أيضا إلى قبائل فرعية كبيرة واننا هنا قد اقتصرنا جهدنا على أن نسجل القبائل ذات الكيان المعروف والتى غالبا ما يكون منها زعماؤها وقوادها وحكامها الذين يمثلون القبيلة بكل فروعها الصغرى .

ولأن كثيرا من القبائل الكبيرة قد ورد ذكرها فى الكتاب ملتصقا بأحداث كبيرة كالثورات والحروب أو الولاء والتحالف ـ فاننا ـ سنكتفى هنا بذكر القبيلة ومنطقتها الجغرافية ولن نذهب إلى اكثر من ذلك إلا إذا اقتضت الضرورة أن نورد شيئا لسبب أو آخر .

القبيلة · **منطقتها الجغرافية**

الدينكا : تعتبر فى عمومها اكبر القبائل عددا وقوة وثراء وتحتل كل شرق المديرية وجنوبها وجزء من وسطها . ويكونون عددا من القبائل الفرعية .

الزاندى : اكبر قبيلة بعد الدينكا ، واكثرها ولعا بالحروب ولها تاريخ مع الاستعمار البلجيكى والفرنسى والانجليزى والمهدية ومناطقهـا كل جنوب المديرية فى حدود مـع الكونغـو والاسـتوائية وكل الجنوب الغربى فى حدود افريقيا الوسطى وغرب بحر الغزال .

الجـــور : ويسمى باسمهم نهر الجور ولهم علاقات عنصرية مع الشلك ومـع بعض قبائل كينيا ومناطقهـم مـع الدينكا ملوال والشرق ووسط المديرية .

البنقـــو : قبيلة صغيرة نسبيا وتسكن منطقة التونج وبعضهم بغرب بحر الغزال .

بلاندا : قبيلة كبيرة نسبيا وقد تعرضوا لأذى كثير جدا من سلاطين الزاندى الذين استعبدوا الاقليات قبل بداية القرن العشرين ويسكنون بين واو وامبورو شرق ديم زبير وبين نهر بور برى جنوب واو وبالقـرب مـن الزاندى .

قـــولـــو : من قبائل واو وتقع دار القبيلة غرب واو مباشرة بطريق راجا وبها كنيسة كيانقو الشهيرة الكاثوليكية .

اندقو : من قبائل ضواحى العاصمة أيضا وتسكن غرب قبيلة القولو مباشرة .

شيرى أو سيرى:يختلف النطق المحلى بين السين والشين ـ وتنقسم القبيلة الى منطقتين إحداهما بالقرب من واو والمنطقة الثانية على نهر ينقو بطريق راجا .

تاقـــبو : منطقتهم بالقرب من امبورو (مع اندقو)

باى أو بارى : يختلف النطق المحلى ـ وتسكن القبيلة غرب نهر بونقو على طريق راجا إلى الغرب .

انديـــرى : تسكن القبيلة شرق راجا .

توقويـــو : يسكنون مع الفروقى وانقلقلى ـ منطقة راجا .

فروقـــى : يسكنون منطقة راجا ـ خور شمام .

انـــقلقـــلى : يسكنون الشمال الشرقى من قبيلة باندالا .

مانقايـــا : يسكنون على بضعة أميال جنوب راجا .

مندالا أو بندالا : يسكنون شرق منطقة فروقية .

دانقو : هذه قبيلة تسكن اتجاه الردوم بدارفور .

كريش (حفرة) : يسكنون منطقة ناكا شرقا .
كريش (اندقو) : يسكنون غرب راجا .
كريس (ناكا) : يسكنون على بعد كبير غرب راجا .
دورو او أورو : يسكنون منطقة نهر كورو .
اجـــا : يسكنون غرب كريش اندقو .
بنـــقا : يسكنون بجوار كريش حفرة الى الشرق .
كارا : سكانهم شرق بيدا .
يـــولـــو : سكانهم شرق الكارا .
بـــــندا : يسكنون بين ديم زبير وراجا .

مراجع الكتاب

١ ـ مكتبة المجلس البريطاني بالخرطوم ولندن .
٢ ـ اوراق ونجت باشا بجامعة درهام ببريطانيا .
٣ ـ دار الوثائق الانجليزية بلندن .
٤ ـ مكتبة جامعة اكسفورد ببريطانيا .
٥ ـ « مصر فى السودان » للبروفسور ريتشارد هل .
٦ ـ تاريخ جنوب السودان ١٨٣٩ ـ ١٨٨٩ م (ريتشارد جراى)
٧ ـ مصر والسودان ـ تاريخ وحدة وادى النيل السياسية (الدكتور احمد فؤاد شكرى)
٨ ـ السودان عبر القرون (للدكتور مكى شبيكة)
٩ ـ تاريخ وجغرافية السودان (نعوم شقير)
١٠ ـ أرض وراء الأنهار (روبرت كولن)
١١ ـ المهدية فى السودان (ارب ثيوبولد)
١٢ ـ السودان الحديث (هولت)
١٣ ـ عصر اسماعيل (عبد الرحمن الرافعى)
١٤ ـ ونجت فى السودان (السير رونالد ونجت)
١٥ ـ المهدية السير (رجنلد ونجت باشا)
١٦ ـ وثائق من مجلات (السودان فى منكرات ومدونات)
١٧ ـ دار الوثائق المركزية بالخرطوم
١٨ ـ التاريخ القبلى لبحر الغزال ـ سانت اندريا

الشقيقتـــان
كتب سياسية ـ دراسات قومية

صدر من كتب سياسية :

١ ـ دقت اجراس السلام

تاليف : عبد المنعم شميس

٢ ـ السوفييت والشرق الاوسط

تاليف : روبرت أوين فريدمان

٣ ـ فارس السلام

تاليف : عبد المنعم شميس

٤ ـ هؤلاء الرجال العظام ومعركتهم المستحيلة

تاليف : محمد فيصل عبد المنعم

٥ ـ الفكر الديمقراطى والحياة النيابية

تاليف : صلاح زكى

٦ ـ مستقبل الديموقراطية فى مصر

تاليف : د . نبيل راغب

٧ ـ الآثار الاستراتيجية لثورة ايران

تاليف لواء (ا . ح) حسين عدلى عبد اللطيف

وصدر من دراسات قومية :

١ ـ سيناء المستقبل

إعداد المراكز القومية المتخصصة

٢ ـ مصر في مواجهة الحملة الفرنسية

للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى

٣ ـ مصر الثورة العرابية

للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى

٤ ـ مائة نتيجة لحرب السادس من اكتوبر

بقلم محمود المصرى

٥ ـ مصر .. البعث الوطنى

للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى

٦ ـ التكامل الاقتصادى

تاليف اسامة غيث

٧ ـ مصربين ثورة ١٩١٩ ـ ١٩٥٢

للمؤرخ عبد الرحمن الرافعى

٨ ـ الفكر القومي المصرى

د . عبد العزيز شرف

٩ ـ قناة السويس شريان الرخاء في العالم

محمد فيصل عبد المنعم

سلسلة كتب شهرية ثمن النسخة ٢٥ قرشا

رقم الايداع ٣١١٩ / ١٩٨٠

الترقيم الدولى ٨ـ٩٠ـ٧٢٩٦ـ٩٧٧ ISBN

AL-AHRAM PRESS

تصدر عن
مركز النيل للإعلام
١ شارع دمياط
المحروسة – القاهرة
ت ٨١٢٢٠٨ – ٨١٢٨٦٣

مطابع الأهرام التجارية

٢٥ قرشا

يصدر عن
مركز النيل للإعلام
١ شارع دمياط
العجوزة - القاهرة
ت ٨١٢٤٠٨ - ٨١٢٨٦٢

مطابع الأهرام التجارية

٢٥ قرشا